الى القارئ

مسؤولية النخبة

عندما نتساءل هل الحضارة الانسانية مهددة بالتدهور والتلاشى وهل إنسان الربع الاخير من القرن العشرين مصاب فى الصميم ، ليس ذلك لأننا متشائمون فلسفيا ، فنحن من المؤمنين بسيادة الانسان على الكون ومن المقتنعين بقدرته العجيبة فى تجاوز ذاته وتغيير منزلته وإعلاء شأنه إذا ما زكى النفس وصح منه العزم ، ولا نعبر فقط عن الحيرة الوجودية التى لا مناص للمفكر الأصيل من المرور بتجربتها المرة عندما يتأمل فى متناقضاته ويتعمق معانى الموت ويتساءل عن كنه الحياة وسر المصير ...

بل إن التساؤل عن مآل حضارتنا سببه الاول ـ الى جانب الناحية الماورائية للمشكلة ـ تفاقم البون الفاصل بين الامم المتقدمة اقتصاديا التى لا تزال ثروتها فى ازدياد مطرد والامم المتخلفة التى تزداد فقرا على فقر بسبب تزايد سكانها المهول وعجزها عن السيطرة على مواردها الخام ـ إن كانت ـ واستغلال الأقوياء للضعفاء ، مما ردد صداه منذ أيام قلائل تقرير رسمى صدر عن البنك الدولى للتنمية ، وما أكدته أشغال الدورة الاستثنائية للأمم المتحدة .

اما السبب الثانى فهو ادراكنا العميق لمدى بؤس الانسان أمام ارتفاع مستوى حياته المادية وما يبدو من عجزه عن الرجوع الى ضميره لمغالبة الأنانية وإقرار الخير وتأكيد التضامن ومواجهة التلوث بكل معانيه ، مما أصبح يردد صداه نخبة من الكتاب وأهل الرأى ممن لا يزالون يحتفظون ببقية من وضوح رؤية ونبل خلق وشجاعة أدبية ؛ أما جمهور الناس المكيفين بوسائل الاعلام التجارية وثرثرة الديماغوجيين وفئة ضالة من الكتاب المرتزقة فانهم ماضون فى هرولتهم نحو غاية سراب ، فى غفلة من واقعهم المر ومآلهم المجهول.

ومن واجبنا أن نسوق للتدليل على ذلك بعض ما ينشر فى البلاد الاوروبية، حتى يفكر فى الامر بعض إخواننا فى بلادنا وفى البلاد الشقيقة ، ممن بهرتهم

مجتمعات الاستهلاك ، فاعلوها وجعلوها مثالا لهم ومرجعا من دون أن يتعمقوا واقع اليوم ويتعرفوا الى أعراض الأزمة الحضارية الخانقة التى تعيشها تلك البلدان فيأخذوا أسباب القوة ويجتنبوا أسباب الضعف ومن أهمها تضاؤل العقيدة واهمال القيم الاخلاقية وتداعى شؤون التربية ...

فهذه جمعية « بلادنا إيطاليا » Italia Nostra تنشر منذ أسابيع دراسة فى 170 صفحة عن ظروف الحياة بروما فتؤكد أن هذه الحياة لم يطرأ عليها تغيير يذكر منذ 19 قرنا ، وأن عدد الاصابات بالحمى التيفويدية يتجاوز بالمدينة الخالدة عددها بكامل تراب الولايات المتحدة وأنه من بين طفلين يوجد طفل مصاب بتأخر فى النمو البدنى من أثر انعدام المساحات الخضراء وأن 50.000 من بين سكان روما يعيشون فى أقبية أو فى مآو غير مناسبة وأن درجة التلوث بروما تبلغ عشرة أضعاف الحد الأقصى القانونى وأن كميات المياه الصالحة للشراب التى تصل الى روما تبلغ نصف ما كان فى تصرفها فى عهد الامبراطور أغسطس Auguste .

وهذا السيد رونى لينوار René Lenoir مدير العمل الاجتماعى بوزارة الصحة العمومية ومدير الخطة الاجتماعية بفرنسا (وهو بهذا الوصف لا يحلم ولا يبالغ ولا ينتمى الى الرافضة ! أو الى الفوضويين !!) ينشر كتابا منذ حوالى ثلاثة أشهر بعنوان « المطرودون » Les Exclus ويحاول فى شجاعة المفكر ورصانة المسؤول تحديد المعالم الصحيحة للوجه الخلقى لفرنسا ، دون الاكتفاء بفرنسا الرسمية الراضية عن نفسها ، ويصف البؤس والقلق ومظاهر الحياة الهامشية التى يستشف تكونها من وراء « المدن المراقد » Cités dortoirs ، ومن خلال ازدحام مرابض السيارات، والمدن التى تقضى على كيانها السيارات بجلبتها وتكاثرها وعزلة الضواحى النائية والعائلات المشتتة والشيوخ المهملين والتمييز العنصرى الناتج عن القطيعة بين محل السكنى ومقر العمل .

ويوضح الكاتب أن الاحصائيات تدل على أن فرنسيا لعشرة (اذا اعتمدنا انعدم المؤالفة الاجتماعية inadaptation sociale) أو لخمسة (اذا أضفنا معيار التدهور البدنى والعقلى débilité physique et sociale) ينتمى الى جمهور المطرودين الذين لفظهم مجتمع الاستهلاك جملة أو تفصيلا .

وتعلق جريدة « لوموند » Le Monde الفرنسية المشهورة بجدها ، قائلة : « وهذه لعمرى ملاحظات مفزعة فى هولها لأنها صادرة عن مصدر رسمى موثوق به » (عدد 29 — 1 — 1974) .

وإزاء هذه الأزمة المتعددة المظاهر والتى لا ينجو منها احد لأن الجميع فى مركب واحد ، ومصيرهم واحد ، نتوجه مرة اخرى الى كبار المسؤولين فى السياسة والاقتصاد والى العلماء ورجال الفكر فى العالم لنحملهم مسؤولياتهم كاملة لأننا نؤمن بضرورة الاعلان عن تحد جديد ، يساوى فى « جنونه » تحدى الفضاء والتطاول على القمر ، هو العمل من اجل بقاء الجنس البشرى la survie de l'homme وحياة الروح والعاطفة والتسامح والتآخى ، لا حياة المادة والقهر والتسخير والتوتر والاستغلال الفردى والجماعى .

وفى هذا المقام نعتبر أن مسؤولية النخبة عظيمة فاذا كانت مجرد صدى يردد الحاجات والنزوات والأهواء حلت الكارثة إذ المجتمعات شانها شان السمك ، لا يتطرق إليها الفساد إلا من الرأس ! وإذا كانت المصباح الهادى والصوت الموجه وقعت المعجزة وتم الصلح بين الانسان وبين نفسه ودخلت الانسانية فى عهد جديد مشرق الأنوار .

ولنتمعن فى قول برنانوس Bernanos : « إذا كان مكتوبا لجنسنا البشرى الفناء فانه سيفنى من وطاة الملل والسآمة والانسان فى كل ذلك كالعارضة تنخرها شيئا فشيئا جراثيم خفية ، وسيبقى عالم الاخلاق متحدثا عن الانفعالات النفسية ورجل الدولة مكثرا من قوى الامن والموظفين والمربى معدا لبرامج التعليم .. إلا أن كل ذلك سيكون بمثابة كنوز تنفق سدى فى معالجة عجين أصبح خلوا من الخميرة (*) » .

محمد مزالي

---

* « Si notre espèce doit périr, elle périra de dégout, d'ennui. La personne humaine aura été lentement rongée, comme une poutre, par des champignons invisibles — Et le moraliste dissertera des passions, l'homme d'état multipliera les gendarmes et les fonctionnaires, le pédagogue redigera des programmes. On gaspillera des trésors pour travailler inutilement une pâte désormais sans levain ».

Bernanos

عدت من يوغسلافيا

بقلم : البشير بن سلامة

عندما وضعت قدمي على أرض يوغسلافيا ، واخترقت بعد لحظات قليلة شوارع بلغراد (بيو ڤراد) ، منتقلا من المدينة الجديدة ، ذات البنايات العالية والخضرة المتألقة الى صرة جنوب سلافيا المتأرجحة بين القدم والجدة ، وجدت الانسان فى دأبه ، وحبه طيب العيش ، واخلاده لطمأنينة النفس الرضية .

ثم لما جبت السهل والحزن ، وتنقلت من المصنع الى الحقل ، وتناثرت دقات الزمن هادئة بين زفرات محرك السيارة وأنات السرعة الزاحفة ، تراءت عراقة الكائن وهو ينوء بماضيه ويخفى آثارا باهتة من جراحات السنين العاتية وقد كساها نهر « الدانوب » رداء من الخيال أزرق رقراقا ؛ ورغم ذلك فان اطلالة طموحة كالشباب ، حثيثة كفجر هارب من صباح ملحاح ، تشير الى آمال تحققت ، ومجد يبنى ، ووحدة فى الصفوف تنشد فتكون .

ان شعوب يوغسلافيا التى عرفت عسف الاتراك طيلة خمسة قرون وأثخن فيها بالسلاح والغزو الحضارى خرجت بثقل السنين تلم أجزاءها وتنشد الحياة حتى جرد لها الزمان مرة أخرى فيالق الحديد والشر النازية فعضت بالنواجذ على الصلد من الكرامة والجوهر من الحرية وعلى نبل الوحدة والتكاتف والتآلف بين أقوامها .

وظهر بعد الحرب العالمية الثانية رونق هذا الاكسير الثلاثى : الكرامة والحرية والوحدة وشمرت الشعوب اليوغسلافية تبنى حاضرها ونهضت باقتصادها فى خضم تناقضات العصر ، وصارعت بحكمة أطماع العمالقة وبرزت من بين كثير من الشعوب القوية العريقة فى السلطان ، وهى المجزأة المقسمة ، مهابة مسموعة الكلمة على لسان زعيمها « تيتو » .

وان الذى دفعنى الى كتابة هذه الاسطر ، ليس هو تمسك يوغسلافيا بالماركسية نظريا ــ لان ذلك يجمعها بغيرها من البلدان الاشتراكية ولم ينجها هو

وحده ـ ولا هو نهضتها وما وصلت اليه من مستوى العيش في مجتمع الاستهلاك اذ كم من دولة اشتراكية أو رأسمالية ضربت بقسط وافر فى هذا المجال ولم يطمئن بالها ، ولا هى الارقام تحصى فتقارن فيتباهى بها وانمـا الذى عاينته وأحسبنى غير مخطىء فيه هو هذا التوازن الذى يوجده نظام من الانظمة فى مجتمعه بين الافراد والمجتمعات ويجعلهم ، سواء كسبـوا القليل أو الكثير ، راضين مقبلين على العمل بعيدين عن التوترات والرجات المخلة بالتوازن النفسى للافراد والجماعات وأحسب أن النظام فى يوغسلافيا أوجده ، ان قليلا أو كثيرا ، وسلامته فى المحافظة عليـه ·

واعتقد ان ذلك لا يتأتى الا بشعور الافراد بالكرامة وأقول شعورهم ، لان الكرامة التى تمنح تستحيل الى عقوق ولا يحصل الا عن طريق الحرية التى هى شعور بالمسؤولية ورضا بالحد من هذه الحرية والا تحولت الى فوضى ولا يتم كل ذلك الا فى نطاق وحدة الصفوف ·

ولعل ما جعلنى ألمس هذه الظاهرة هو وجه الشبه بين يوغسلافيا وتونس التى تريد أن توجد توازنها فى كنف هذه المبادىء الثلاثة وقـد عرف زعيمهـا الحبيب بورقيبة كيف يجعل من جماعاتها المتفرقة من قبل استقلال البلاد ، قوة ضاربـــة ·

البشير بن سلامة

ديالكتيكية الموت والولادة

شعر : عبد العزيز اللبيب الجديدي

مهـــداة الى مجلـة الفكــر

1 ـ تناقض :

ـ مشرقـي
مغربي
يا عش الخطاطيف المهاجرة المنسيـه •
ومهجر نسور غازية جنكيزيـه •
عند سفح ميلادك
نعقت غربانك المرتزقـة
العدميـه • (1)
وفيـــك
تكتلت الأضداد وفي التاريخ •
من رواسب التاريخ :
فهتفت كوفية الحجاج :
« ألا توهجي عصارة الاجيال الغابرة •
وابشري بالانفـراج
قضية تاريخ عاهـرة ! »

★ ● ★

ـ إرث التاريخ :
كوفيات بيضـاء •
متن فحواشي صفراء •
وعثماني يجلد خطاطيف بكمـاء ،

مكسورة الجنـــاح
تزرع الحب وتجني الأملاح •
أملاح بني عثمـــان •

★ ● ★

ـ ومن وراء البحـــار ،
أنيق ذو قبعـــة يسعى ،
ليفتـك الحب والحـب
من مناقير الطيور الجريحـة •
جريحة الجناح واللب
ثم يسافر لتبقى
قبعته وعصـاه الدمويـة
يسافـر فيكتب :
« الى المرة القادمة الموسميـة »
جملة معهودة
تتلقفها غربان الارتزاق
حمدا لذوي القبعـة !
وعندهـا •••
تغـزو النسور الغريبـة •
بربريـة •

★ ● ★

ـ قبعة وكوفيات بيضـاء •
وحجاج في كفـن
يتلو متن الفنـــاء •

---

(1) العدمي : الذي يرفض الانتماء، والتعريف القومي •

فناء الرواسب العثمانية ٠
فناء الأقنعة العدمية ،
النازلة الى قرار ٠
قرار التاريخ ٠
كجلاد فى آخر قوته ٠
كعملاق من طين !
ذاك مرض الموت !

✶ ● ✶

كان معاوية يخشى « الحمراء »
وعيون الزيتون الشامية
وابتسامات السمر السمراء
عميقة الأصول قرمطية !
توثق الخيط بالخيط
خلف قصبة المنسج
وسرب الخطاطيف العربية
كطلائع حمراء
تبشر بالمطر
ترسم أفق تاريخ منتظر
على الشفق الأحمر
وعندها ٠٠٠
تنهض الطيور المعوسة ٠
٠٠٠ ويبسم عود الحياة أخضر ٠
ذاك مرض الولادة !

✶ ● ✶

2 ـ تجاوز :

جلادو التاريخ ،
ورواسب الأجيال الغابرة ،
ضعف فى قوته ٠
قوة فى نهايتها ٠
محتضرة ٠
عالقة ٠
الجذور الحمراء
خليقة المداخن السوداء
والجبس الأبيض
ومقاطع الجبال الشماء
والارض المنبوذة الغبراء
قوة فى ضعفها ٠
زحفا !
ضعف فى نهايته ٠
قوة فى بدايتها ٠

★ ● ★

وإذ ما تسيل دماء الخطاطيف الطليعية
يصيح الحجاج :
« اخفتى أزمة تنفرجى ! »
ويقف السد ٠
سد الرواسب التاريخية ٠
وورثة بنى عثمان ٠
وذوى القبعة ٠
والعصا الدموية ٠

★ ● ★

الساعة الصفر !
يتصدع ،
السد ٠
ينهد ٠
تجرفه دماء العصافير الخريفية ٠
فعند الأفق شرر ٠
ونقمة منذرة ٠
بشنق الرواسب العثمانية ٠
ودفن الحجاج ٠
ومعاوية والمنتظر ٠
فالعنف تاريخ ٠
والتاريخ عنف ٠
فابشرى
أصول أرضنا الحمراء ٠
وسواعد المداخن السوداء ٠
ثم ابسمى ٠٠٠

باريس / ع٠ل٠ج ٠ جانفى 1974 ٠

كلمات منثورة

بقلم : البشير المجدوب

أسفى على شيوخ لا تزال صدورهم تتأجج بنار الشبيبة تراودهم أحلام الفتوة ونوازع الصبا ويهزهم الطرب هزا فلا يتحركون تصونا واشفاقا وكأنهم يلمحون بعد سخفهم وابتذالهم وهوانهم على أنفسهم وعلى الناس !

* * *

أروع الحسن ما اشتبهت عليك حقيقته فالتبس فيه الفن بالواقع والواقع بالفن ...

هذه الباقة اللطيفة فى انائها البلورى .. وهذه الشجرة المنتصبة على الطريق يغمرها الشفق بنوره .. أهما حقيقة أم خيال ؟ أم مزيج منهما محير يشرق في النفس لحظة ثم يتبدد ويموت ؟ !

* * *

المرأة الناضجة التامة الأنوثة كالعازف البارع الممتاز خبيرة بأوتار النفس جميعا تتصرف فيها حسب هواها ؛ بينما هى تأسر القلب بلطفها ورقتها وهيبتها ووقارها اذا هى تدغدغ « الحس » بظرفها ودلالها وطيشها وعبثها .

* * *

الشعر الى الحياة كالعطر .. « روح العطر » الى الزهور .

* * *

ليس الخجل حتما عنوان ضعف وتوجس من الواقع عجزا عن ملاءمته أو تطويعه وتسخيره .

قد يكون أحيانا صورة مقنعة .. تعبيرا مهذبا عن استنكارنا لأوضاع سخيفة وتقاليد زائفة .

* * *

غاية الانسجام عند الفنان فى ازدواجه بالطبيعة وتفتحه لها وفهمه عنها وتجاوبه معها .
هذا الالتحام القوى العميق هو « النبض » الحقيقى لكيانه وباعث الخصب والحيوية فيه .

* * *

كانت ثيابه ترف حسنا وظرفا
ثياب فاخرة بلغت بها الأناقة الى حد ... الوقاحة
وأقبلت على الرجل أتأمله فاذا هو يحرك شفتيه بلا انقطاع وبيده مسبحة فاخرة يداعب حباتها برشاقة واذا هو يلقى من حين لآخر لمحة خارج الحافلة يتلهى بالمنظر ساعة .. ثم يجول بعينيه بين فئات الركاب متابعا همسه وتسبيحه وقد لاحت على وجهه سيما الغبطة والسعادة .

* * *

الأدب منازل ودرجات منها الشهادة تمثيلا للواقع وسبقا الى التعبير عن خبايا النفوس ورغباتها المكبوتة .
ومنها ، وهى أقصاها ، فتح سبل جديدة وخلق قيم مبتكرة تعيش البشرية عليها أجيالا .

* * *

كان سبيل الرجل الى المرأة وجهها بمعانيه وأسراره .. رنة صوتها .. ثم القد بما فيه من رشاقة وأنس وبهجة ثم طباعها وجانب الانسان فيها ...
أما اليوم فلا يستقر النظر لحظة على الوجوه حتى يحيط كالطوق بمفاتن الجسد البادية للعيان يلبسها لبسا وهو يتلمظ شهوة ومجونا أو يعرض عنها عزوفا وابتذالا .

* * *

ما أغرب أن تسمع ضحكك يتجاوب وأنت فى خلوة وحدك .. فلا تدرى أأنت تضحك مع نفسك متفكها بما تقرأ أم ضاحكا عليها سخرية منها !

* * *

الحياة فن ممتنع رفيع لا يترقى اليه الا عند مشارف الشيخوخة وقد فات الأوان ٠

* * *

ها أنا أتأمل من خلل سياج الحديقة هذه الشجرة الظريفة ٠٠ كتلة خضراء أسلم نفسي اليها طوعا ٠٠ أعتنقها ٠٠ أشدها الى وأنضم حتى الازدواج ٠٠
أعرج فيها خفة ويسرا وأنزل ، والتف حولها وأطوف ٠٠
أتذوق هذه النكهة الخضراء وكأن مسام كياني أفواه ٠٠ شفاه تلقفها ٠٠ تتشرب وهجها الخافق المتموج حتى أفنى فيها وأغيب
وأشهد هذه الرياضة العجيبة ٠٠ هذه الحركة البهلوانية تصدر منى عفوا وكأنى الصورة والعين وكأنى الشجرة الانسان ٠

* * *

لايزال الانسان يأكل آلهته ويلهو بها دهرا بعد عبادتها وتقديسها حينا وهكذا ٠٠٠ فلا طاقة له بها ولا غنى له عنها ٠

* * *

كما يمسك نفسه الغواص بحثا عن الدر في قعر اليم ٠٠٠ كذا يعطل الفنان عقله عند تملى الجمال فيعود حسا خالصا بغية النفاذ الى كنهه واستيعاب مذاقه ٠

* * *

رب تذمم وتأثم منشؤه فقر أسباب اللهو وتفاهة اللذة لا العفة الصرف والتجلد الحق ٠

* * *

ما الانسان الا بما فيه من تفرد وامتياز وغرابة وشذوذ وما سوى ذلك فارث مشاع لا فضل فيه على سائر الحيوان ٠

* * *

مسرح الحلم بذوره من صفحة النهار ٠

* * *

شد ما يشقى الفنان بعزلته ولكنه يلتذها ويقتات منها ويستطعم مرارتها خمرة مزة يضيء لها كيانه ويخصب واذا الالم نشوة والنشوة خلق وفن ٠

* * *

كلمة تتلجلج أحيانا ، عن وعى أو غير وعى ، فى صدر كل منا : « لقد فرطت وضيعت . فما أبعدنى عما أريد أن أكون ... بل عما كان يمكن أن أكون ! »

* * *

كما يتحلب فم الذواق أو المنهوم عند رؤية فاخر الطعام ... كذا الكاتب أحيانا ما ان يلمح صحيفة فى تمام جدتها ونقائها وبهجتها حتى تثور شهوته الى الكتابة حنينا عارما يبرحه بعذوبة قسوته .

* * *

الى صديقـــة :

« ما أعجب أمرنا أنا وأنت ! يخيل لى أحيانا أن الموسيقى تحدثنى عنك .. تحمل الى صوتك كأنها الترجمان لنجواك .. لا بـل أنت التى تحادثيننى من خلالها ، وقد رقت وشفت ، بأفصح لمح وأغرب بيـــان . »

* * *

مروج .. مروج على مدى البصر ... والزرع فى أوج النهار تأتلق رؤوسه ... يرف رفيفا ... بحيرة خضراء شد ما تختلج مع هبات النسيم ...

هنا وهناك كتل .. أكوام من الزهر كأنها آلاف من الفراش الساكن الوادع .. كالعمائم الملونة .. أو القباب الصغيرة ...
انه الربيع فى زهوه وطربه .. فى سماحته وجوده .. كالنبع الفوار يجيش حياة مستجدة .. نضرة وشبابا .. قطعة من الخلـد لا ينى اشراقها يومض فى النفس على الدوام ...

* * *

أناس تزعجهم سعادة الآخرين الى حد الفزع والشقاء كما تتأذى الخفافيش بالنور وتختنق ..

* * *

جل « كلماتى » نبضات مخنوقة .. يوميات مختزلة حتى لكأنها « أقراص » حيـــاة .

ب . م .

مضى الليل

شعر : محيى الدين خريف

مضى الليل وآستبشر الساهر   وليل الشجى له آخر
طويل كطول السنين العجاف   حزين كما غرد الطائر
له وقعه حين تندى الجراح   وللجرح سابره الماهر
ليالى كان القطيع الضعيف   يروعه الأسد الحادر
سرى اليأس مختلطا بالنفوس   ولليأس معوله الكاسر
وهب الألى همهم همها   يؤلبهم هدف ظاهر
لك الله يا شعب من صابر   ظفرت وقد يظفر الصابر
تقحم أبناؤك المخلصون   شدائد يذكرها الذاكر
دهى الخطب فيها حلوم الرجال   وشد على قلبه القاصر
وند من الشعب نفر قليل   بهم يفزع الغدر والغادر
تلاقوا على حب خضرائهم   وحب البلاد لهم قاهر
ولموا الشتات وقد أجمعوا   على الموت أو يهزم الآسر
وشقوا الفجاج العراض الفساح   وما نام عن وتره الواتر
وجمع كلمتهم فى البلاد   حزب على جمعهم قادر
بدا ينشر الوعى بين الورى   وفى ظله انتبه السادر
وأوقد فى شعبنا جذوة   أحس بها الثعلب الماكر
فقام كمن هاجه أرقط   ومن دونه خائن سافر
يشتت يقتل فى ثورة   بها اختلط الجور والجائر
يروم ليخمد عزم الشعوب   وما رامه مطلب خاسر
وما نام فى الحزب حراسه   ولا التام جرح به ناغر
وأهدى الضحايا على تربة   بها يرخص البذر والباذر
شبابا وشيبا لقوا حتفهم   ومهر العلى باهض نادر

(*) نظمت هذه القصيدة بمناسبة الاحتفال بالذكرى الأربعين لتأسيس الحزب الاشتراكى الدستورى .

وعرس الكرامة قربانه ... دم أحمر فيضه مائر
ومن بين من تجتلى أنجم ... سنا ضوئها ساطع باهر
على نورها فى الضباب الكثيف ... مشى ضاربا فى الدجى السائر
وكان الطريق له مسلك ... طويل به يعثر العابر
وجاءت سنون كجنح الظلام ... بها اختلط البر والفاجر
فلا علم خافق فى السماء ... ولا حاكم رافض ثائر
ولا لغة الضاد مذكورة ... بها يصلح النغم النافر
زمان احتوى البيت سكانه ... وأبدل من جنسه الحائر
وفر العفاة الى ربهم ... وفى الضيق يذكره الذاكر
ودب السقام بكل الوجوه ... وللدمع قد يلجأ الصاغر
ولكن اذا جد جد النضال ... فقد حسم الأمر والآمر
وجاء الذى لا ونى سيره ... ولا عزمه خائر فاتر
حبيب مشى حبه فى القلوب ... فأحبب بمن ضمه الخاطر
وأنذر من كان فى غيه ... وبالزجر يرتدع الزاجر
تماسك لم يثنه عاصف ... وموج الردى لاطم زاخر
وضحى بما عنده لم يعد ... له فى الدنى مأرب آسر
سوى أن يرى تونسا فى الورى ... معززة شعبها ظافر
وكان الذى هد صم الصفا ... بحق ولو نكر الناكر
وبان الصباح على رسله ... وباكرنا وجهه الناضر
فأشرق عن غادة حرة ... ربيع الزمان بها ساحر
زهاها الجمال فلم تحتجب ... وعن وصفها عجز الشاعر
لها كل يوم كفاح جديد ... ودرب البناء بها عامر
وما انفك من قادها مخلصا ... بأسحارها جفنه ساهر
يرى اليوم ما فى غد غيره ... يراه بذهن له سابر
بأمثاله تحسم المشكلات ... ويزهو ويفتخر الحاضر

م. غ.

كرشنشتاينر، نشأته وآراؤه التربوية

بقلم الدكتور فاضل الجمالي

تعانى الانسانية اليوم فى كل أنحاء المعمورة من مشاكل تربوية تنجم عن التطورات السريعة فى حياة الانسان المعاصر واحتياجاته وعدم مسايرة التربية والتعليم لهذه التطورات السريعة ٠ فالتطورات السريعة منذ الحرب العالمية الاولى الى يومنا هذا فى حياة الانسان السياسية والاقتصادية والاجتماعية والاخلاقية والروحية هى تطورات عميقة وخطيرة وحمل المربى ثقيل ومسؤوليته كبرى ولا بد للمربى من أن ينهض بحمله ويتحمل مسؤوليته اذا شئنا للانسانية البقاء والاستمرار فى التقدم والازدهار ٠

ولكن المربى لا يستطيع أن يؤدى واجبه الكبير هذا ما لم يتحرر من الجمود ويكسر القيود التى تكبل عقلية المجتمع بتقاليد بالية ويتخلص من نظم وأساليب عفا عليها الدهر ولم تعد صالحة لزماننا ٠ ولئن كان هذا الانعتاق الفكرى والروحى والمادى ضروريا فى كل حقول الحياة فانه ألزم ما يكون فى حقل التربية والتعليم ٠

مكانة كرشنشتاينر فى التربية والتعليم ٠

ان الثورة فى الفكر التربوى الحديث ربما تكون بدأت بكتابات جان جاك روسو وقد تأثر من آراء روسو التربوية مربون عظام من أمثال المربى السويسرى العظيم « بستالتسى » والكاتب الروسى الشهير « تولستوى » ٠ وتأثر من بستالتسى العديد من المربين فى العالم منهم المربى الالمانى المعروف فروبل مؤسس « رياض الاطفال » والفيلسوف المربى هربارت الذى حاول وضع أصول التدريس على قواعد علمية مضبوطة ٠ وربما كان من أفضل من طبق أساليب بستالتسى فى التربية ودفع بها الى الامام المربى الذى نتحدث عنه الليلة أعنى به « الدكتور جورج كرشنشتاينر » ٠ فهو يجمع ويوحد بين آراء بستالتسى المربى السويسرى و « جون ديوى » المربى الامريكى المشهور ٠ فهو يتفق مع بستالتسى فى تأكيده على أهمية حب المربى لاطفاله ورعايته لمستوياتهم ومداركهم الذهنية كما يعنى بتقديم الدروس بصورة جذابة

ومحسوسة . وهويتفق مع جون ديوى فى تأكيده على ضرورة الاهتمام بأولاع الاطفال وميولهم واحتياجاتهم وتوجيهها توجيها تربويا ذلك الى جانب اهتمامه بالخبرة وبالعمل فى التعليم .

فكر شنشتاينر يمثل فى نظرى أفضل ما توصل اليه الفكر التربوى الحديث فانه يجمع ويوحد بين **المحبة والولع والعمل** فى نظامه التربوى ثم يوجه كل ذلك نحو المواطنة الصالحة والحياة الاجتماعية الانسانية المؤسسة على العلم والاخلاق الفاضلة والحياة الروحية الصافية . وما يعطى كرشنشتاينر مكانة ممتازة بين المربين المجددين هو أنه لم يكن نظريا فحسب بل انه طبق نظرياته فى حياته فأصبح فى عداد السعداء الذين عاشوا ليروا أحلامهم وأمانيهم تتحقق . ولا شك فى أن ما تتمتع به « ألمانية » اليوم من قوة صناعية واتقان فى العلم والعمل يرجع فضله بالدرجة الاولى الى مربين مخلصين من أمثال كرشنشتاينر الذى اتخذ من العمل المتقن والفاعلية المحور الذى تدور حوله كل الدروس وكل الافعال التربوية . فالعمل هو الاساس فى اكتساب المعرفة . والعمل هو المقوم للأخلاق . والعمل هو الوسيلة للمواطنة الصالحة . والعمل هو الطريق الى السرور والسعادة فى الحياة . هذا هو كرشنشتاينر ولا تعجبوا اذا قلت لكم وأنا من المنتمين الى المدرسة الحديثة فى التربية أنى تأثرت تأثرا عميقا من آراء كرشنشتاينر فى تفكيرى التربوى . وذلك بدرس ما ترجم من تآليفه الى اللغة الانكليزية . وكان سرورى عظيما يوم جاءنى الدكتور حسين كبة وهو أحد الاساتذة العراقيين الذى كنت ارسلتهم للدراسة فى ألمانيا ثم فى سويسرا يوم كنت أتولى شؤون التربية والتعليم فى العراق جاء يستشيرنى فى نقل كتاب كرشنشتاينر « التربية الاجتماعية الوطنية » الى اللغة العربية فشجعته على ذلك ورحبت بالفكرة أحر ترحيب . ثم طلب الى أن أكتب مقدمة الكتاب ففعلت . وانه لمن دواعى السرور أن أجد استاذا فرنسيا هو الاستاذ Jean Chateau وضع كتابا عن خمسة عشر مربيا عظيما اختارهم من تاريخ التربية من أفلاطون الى عصرنا هذا عنوانه : Les grands Pédagogues فجعل كرشنشتاينر بين عظام المربين فى تاريخ التربية . وهأنا بعد هذه المقدمة عن مكانة كرشنشتاينر فى تاريخ التربية أتناول بايجاز نشأة كرشنشتاينر وحياته وآراءه التربوية وجهوده فى سبيل تطبيقها معتمدا على مطالعاتى العديدة لكتبه ولما كتب عنه ولا سيما على كتيب للآنسة : Diana Simons عنوانه « جورج كرشنشتاينر »أفكاره وعلاقتها بيومنا هذا » .

نشأة كرشنشتاينر وحياته :

ولد جورج كرشنشتاينر فى مدينة مونيخ عاصمة بافاريا احدى مقاطعات

ألمانية فى سنة (1854) • ونشأ فى بيت فقير كان قد ضيع ثروته • وعاش فى بيئة متخلفة يمكــن أن تقارن بالعديد من بلاد العالم الثالث اليوم • فقد كــان مرض الكوليرا منتشرا آنذاك • وكان أبوه وهو فى الحادية والخمسين من عمره قد تزوج للمرة الثانية بفتاة تدعى كاترينه وهى فى التاسعة عشرة من عمرها •

كان انطون رجلا صالحا مستقيما يحب الصدق والانصاف والثبات على المبدأ • ولكنه كان عاجزا عن العمل تقريبا لضعف بنيته • أما كاترينـه فكانت مثـالا للزوجة الصالحة المتسامحة وكانت عنوان العطف والتفهم لزوجها وأطفالها وهى التى كانت تعمل لتكسب القوت للعائلة • أما جورج الصغير فكان يلعب على شاطىء نهر الأيزار وادخل المدرسة وهو فى السادسة من عمره • وكان أبـوه يعوده على الطاعة ومراعاة النظام والمحافظة على المواعيد وهـذه من السجايـا الالمانية التى لا يجوز التهاون فيها • فكـان عليه أن يجـلى حذائه ويأتـى بـه ليشاهده أبوه كل يوم • كما كان عليه أن يعد واجباته المدرسية بدقة واتقان وان يتولى مساعدة كاترينه فى الحانوت الذى تبيع فيه « الجبن » • ولما بلغ جورج الثامنة من عمره صار يداوم بعد ظهر يومى الاربعاء والسبت على أخذ دروس خاصة فى الرسم الأمـر الذى جعله من هـواة الرسم فأدخل الاصلاحـات على تدريس الرسم حين تسلم زمام التعليم فى مونيخ فيما بعد • لم يكن جورج من الاولاد البارزين فى الذكاء كما أنه لم يكن غبيا • ولكنه كان يسأم الدراسة الجافة فى المدرسة تلك الدراسـة التى لم تجلب انتباهه أحيانا اذ كـان شارد الذهن متحركا • ولذلك فقد وعده مدرسه مرة بجائـزة فيما اذا بقى هادئـا مصيغا للدرس لمدة ثلاثة أيام • وقد فعل فنال الجائزة •

كان جورج يهوى الطبيعة والتجول فى الاحراش • كما كان شغوفا بالمطالعة ولما كانت عائلته الفقيرة لا تستطيـع أن تزوده بكتب المطالعـة فانه كان يقـرأ جريدة Leipziger Allegemeine Zeitung وهى الجريدة التى كانت تستعمل فى الحانوت للف البضاعة • ولم يكن جورج فى معظم الاوقات يفهم ما يقرأه فى الجريدة ولكنه كان يطير فرحا عندما يعثر على مادة يفهمها • ولمـا كانت عائلـة كرشنشتاينر عائلة كاثوليكية المذهب كان حضور الكنيسة يوم الاحد وتلاوة الكتاب المقدس من الامور التى لا يجوز التهاون فيها •

بعد سنوات معدودة انتهى جورج من المدرسة الامر الذى أسره وأسر أسرته ولما كانت الاسرة فى حاجة الى عون مادى فهى لا تستطيع أن تتحمـل نفقـات استمرار جورج على الدراسـة • فنصحه صديق العائلة الدكتور Rampf بأن

يدرس ليصبح قسا • فاستحسن جورج الفكرة لانه كان يحب رجال الكنيسة كما كان يحب رجال الشرطة • ولكن صيرورته قسا تتطلب دراسة 12 سنة وهو ما لا يستطيع الصبر عليه • فعدل عن فكرة درس اللاهوت وتبرع أخـوه يوسف بأن يجد له عملا فى حانوت فى مدينة كولون ولكن جورج رفض ذلك • واذ ذاك خطر له ان الطريق الوحيد لتحقيق هـدفه هو أن يدخـل دار المعلمين ففعل • وقد قضى عدة سنوات فى معهد Freising للمعلمين بالقرب من مدينة مونيخ حيث عاش جورج عيشة تقشف وظل يستجدى غداءه وقت الظهر من كل يوم لدى عائلة كريمـة فى البلدة • وكان منهج الدراسة فى مدرسـة المعلمين مشحونا بالمـواد الدراسية فعدد المـواد التى يدرسها الطالب تقـارب الأربعين مادة • فمن علوم طبيعية ورياضيـة الى العلوم الانسانية الى الفنـون والآداب الى اللغة فالتربية وعلم النفس فالموسيقى والرسم والرياضة البدنية الخ ••• وكان كرشنشتاينـر يكره الحفظ الأصم للمـواد • ولما نضج فكـره التربوى أصبح يشجب وينتقد هذا النمط من الدراسة والتدريس والمدرسـة وأساتذتها لم يعجبوه باستثناء استاذ واحد اسمه Dresely • كاد يكون هذا الاستاذ بستالتسى المدرسة اذ أنه كان يحب طلابه ويفهمهم ويبدى اهتماما شخصيا بكل واحد منهم •

وفى سبتمبر 1871 عين كرشنشتاينر معلما مساعدا فى مدرسة ريفية صغيرة تبعد خمسة عشر ميلا شرقى مونيخ • وهو لم يكن سعيدا فى مدرسته هـذه لان الاطفال (وكانوا من عائـلات فلاحية) لم يقبلـوا على الدرس بشـوف ولم يداوموا بانتظام وكانوا يسخرون من الدرس والمدرسة • ثم انه وجد أن البيئة فقيرة ثقافيا فلا نواد ولا مكتبات ولا رجال فكـر • وفى نهايـة السنة نقل الى قرية بالقرب من Augsburg ثم الى مدينة Augsburg نفسها فكان هذا النقل رحمة • اذ وجد كرشنشتاينر نفسه فى محيط غنى بالثقافة • فنظم هـو وعدد من أقرانه حلقة دراسية يقدم كل واحد منهم بحثا يتلوه على الجماعة • فاختار كرشنشتاينر بحثا كيماويا ألقاه بصورة جافة كما كـان يتلقى هـذا الدرس فى مدرسة المعلمين • فنام الزملاء وهم يستمعون اليه الامر الذى حـز فى نفسه • وبالرغم من الانكسار الذى أصابه فان تعطشه الى العلم وشعوره بالهوة السحيقة بين ما هو عليـه وما يريد أن يحققه جعلـه يطلب المزيـد من الدراسة •

وفى سنة 1873 ترك وظيفة التدريس والتحق بالجمنازيوم (الثانوية) وأخذ يرتزق عن طريق عطاء دروس خصوصية • وبعد سنتين فى الحادية والعشرين

من عمره استطاع أن يجتاز امتحان السنة السادسة الثانوية وفى السنوات التالية اتجه الى درس العلوم ولا سيما الرياضيات لان هذه الدروس تتطلب اعمال الفكر . والمهم فى حياته فى الجمنازيوم (الثانوية) أنه اكتشف ذاته فعرف مواطن القوة فى شخصيته كما عرف حدود نفسه.وفى الثالث والعشرين من عمره تبلور طموحه فى الحياة فقرر أن **يصبح أفضل معلم فى أحسن مدرسة وفى أدق موضوع** . وحين أكمل الدراسة الثانوية (الجمنازيوم) سنة 1877 أصبح طالبا جامعيا فى الرياضيات والفيزياء وكانت له رغبة عارمة لسعة الاطلاع وكسب الاختبارات الامر الميسور فى النظام الجامعى الحر الذى يسود جامعات ألمانية . ومن حسن حظه أنه أصبح يدرس على أكبر علماء الرياضيات فى ألمانية انذاك وهو الاستاذ Felix Klein فكان ذلك مدعاة سروره وفخره ولكن الاستاذ Klein كان يلح على طلابه بأن يتفرغوا للرياضيات وحدها وهذا لا يعجب كرشنشتاينر . فكرشنشتاينر كان متحمسا لدرس الحياة التى لا تحد بالرياضيات . وقد انتمى كرشنشتاينر الى جمعية الرياضيات لمدينة مونيخ تلك الجمعية التى أسسها Max Planck العالم الفيزيائى الشهير وقد ترأس كرشنشتاينر هذه الجمعية لمدة سنتين ونصف السنة . كما أنه كان فنانا يمارس الرسم ويحمل معه اضبارة الرسم ليرسم فى جولاته حين يخرج الى الطبيعة خارج المدينة . كما أنه كان شغوفا بالسير على الاقدام وتسلق الجبال . وكان يتعاطى التزحلق على الثلوج أيام الشتاء . وكان للموسيقى محلها الخاص فى قلبه فانه كان يعزف على البيانو كل يوم صباحا قبل الذهاب الى العمل . وكان يهوى الاوبرا ولا سيما أوبرات واغنر التى تعبر عن خصال ألمانية عديدة ، وفوق كل ما مر فقد كان كرشنشتاينر قوميا متحمسا . ومن الشخصيات التى تعلق بها كرشنشتاينر « بسمارك » موحد ألمانية . وكان كرشنشتاينر يعتبر شرف أمته والاخلاص لها فى مقدمة المبادىء الاساسية التى ينبغى أن يتشرب بها الانسان فى هذه الحياة . هذا وقد بقى طوال حياته يحمل الحب والولاء لمقاطعة بافاريا الجميلة والتى عاصمتها مونيخ ففى بافاريا شب وترعرع كرشنشتاينر بعد جهد شديد وبالرغم من المشاكل المالية والمعاشية نال كرشنشتاينر شهادة الدكتوراه فى جامعة مونيخ فى جويلية 1883 وكان بحثه عن نظريات الكهرباء . وفى السنة ذاتها عاد الى التعليم فاصبح مساعد استاذ فى الرياضيات فى ثانوية ملانشتون فى مدينة نورنبرغ Melanchthon Gymnasium هذا وان نظرته الى التعليم قد نضجت واتسعت . فهو لم يعد يلقن المعلومات فحسب بل صار يحرك أفكار الطلاب وينمى حيويتهم وطموحهم ويسعى لان يجد فى كل طالب ما هو خير ومفيد . ففى كل انسان نزعة للخير وواجب المربى أن يحرك تلك

النزعة وينميها · وذلك يتطلب الاتصال بالطلاب والتعرف عليهم بحيث تؤسس العلاقة بين الاستاذ والطالب على قواعد النزاهة وحسن النية · ومع أنه لم يدرس علوم التربية فى الجامعة ونسى ما تعلمه من دروس علم النفس فى مدرسة المعلمين الا أنه اعتمد على اكتشاف طرق التدريس الناجعة · وكان حبه لطلابه هو الاساس الذى بنى عليه علاقته معهم · ولذلك فقد كان يكرس جزءا من أوقاته خارج الصف (القسم) للألعاب الرياضية والسباحة مع الطلاب · وهو بذلك أوجد جوا أجتماعيا عائليا بينه وبين طلابه · ان تدريسه الرياضيات كان مرتبطا بالاختبارات فى الحياة اليومية كحساب كلفة بناء دار وحساب مصروف عائلة · وكن مرحا مع طلابه لا تفوته النكتة ولكنه فى الوقت ذاته كان صارما كل الصرامة مع التلميذ الذى يسيء التصرف فقد ورث الصرامة فى الضبط من أبيه على ما يظهر والضبط من مزايا التربية الالمانية كما هو معلوم ·

وفى سنة 1885 أى بعد سنتين انتقل الى وظيفة أستاذ الرياضيات فى المدرسة التجارية فى نور نبرغ بمرتب أعلى الامر الذى مكنه من أن يتزوج خطيبته التى كان يحبها وتحبه · هذا وان زوجته الهادئة لم تكن مرتاحة من مساهمة زوجها فى الحياة الاجتماعية والفكرية على هذا النطاق الواسع ·

وفى سنة 1890 عين فى ثانوية Gustave Adolf فى بلدة Schweinfurt ولما كلفه مدير المدرسة بتدريس علوم الحياة (الحيوان والنبات) فى الصفوف الدنيا من المدرسة اعتذر وأبى لانه لم يتخصص فى هذه العلوم ولكنه صار بعد ذلك يحضر محاضرتين فى الاسبوع فى علوم الحياة كما انتمى الى نادى التاريخ الطبيعى حتى أصبح مؤهلا لتدريس هذه العلوم ولقد سحر باكتشاف عالم الازهار وعالم الحيوان · وبعد سنة صار يدرس علم النبات · ولم يقتصر تدريسه النبات يوما على النظريات بل كان يصحب الطلاب الى الغابات والمروج ليشاهدوا النباتات فى بيئتها الطبيعية ثم يرسمون ما يشاهدون ويدونون أسماء النباتات وهذا ما جعل درس النبات حيا ومشوقا للغاية · ولقد شبه كرشنشتاينر شغف الطلاب بدرسهم الطبيعة « بالأرض العطشى التى تمتص المطرة الأولى بكل نهم » ·

وفى خريف 1893 عاد الى بلده الحبيب مونيخ وصار يدرس الرياضيات والفيزيا فى الصفوف العليا من ثانوية Ludwigs ومع أن بيئة مونيخ الثقافية كانت تسره الا أن الجو التعليمي لم يكن يعجبه · اذ جل ما تفعله المدرسة هو تقديم المعلومات ليس أكثر · ولكى يسد هذا النقص قام بتنظيم

رحلات لطلابه فى عطلة نهاية الاسبوع الى البحيرات والغابات الامر الذى أدخل السرور والنشاط فى نفوس الطلاب . انه كان وحيدا فى نزعته التربوية الجديدة وماذا يستطيع ان يفعل الصوت الواحد وسط مجموع جبل على التقاليد؟ انه لم ييأس قط واتبع شعار « دع الأمور تجرى واستفد منها قدر المستطاع » وبينما هو يجاهد من أجل تجديد الاسلوب التربوى واذا بفرصة غير منتظرة تتاح له . فقد اختير ليتولى شؤون « التربية القومية » فى مدينة مونيخ . كيف جرى ذلك ؟ كان قد وقع الاختيار على الدكتور نيكلاس ليكون مديرا للمعارف ولكن الدكتور نيكلاس بروتستانتى المذهب ومونيخ مدينة كاثوليكية ولما سمع الدكتور نيكلاس الانتقادات الكثيرة حول تعيينه فى هذا المنصب اعتذر عن قبوله ورشح بدله الدكتور جورج كرشنشتاينر ففى سنة 1895 أصبح كرشنشتاينر مسؤولا عن كل مدارس مدينة مونيخ . يا لها من فرصة عظمى تتاح له ! فقد ظل ينتقد الاساليب التربوية المبنية على الحفظ الأصم ودرس الكتب بعيدا عن الحياة زمنا طويلا وها هى الظروف تهىء له فرصة التجديد وفرصة العمل . وقد جاء فى خطابه عند ترسيمه فى منصبه الجديد ما يلى :

« على المدارس أن تستهدف تقديم المعلومات والمهارات البسيطة والواضحة وان تعمل على تقوية الجسم وتحسن الرشاقة الجسدية وتوقظ الشعور الداخلى العميق بكل ما هو نقى وخير وجميل . وان تقوى ارادة الطلاب نحو العمل والاخلاق ولاجل أن يوجه الطلاب نحو الخير لا بد من أن تكون التربية المعطاة مؤسسة على أسس دينية متينة » . وبعد ان استلم مهامه كمراقب أو مدير للتربية والتعليم فى مونيخ بدأ بزيارة المدارس والاطلاع على سير التدريس فيها والاستماع الى الملاحظات والاقتراحات التى يبديها المدرسون وبعد دراسة دامت ثلاث سنوات تعرف فيها على نقاط الضعف والقوة فى التعليم الابتدائى وصنع اصلاحات جديدة للتعليم الابتدائى دونها فى تقريره « ملاحظات على المنهج الدراسى سنة 1899 » Beobachtungen zur Théorie des Lehrplans ثم انه درس علاقة التعليم الابتدائى بالتعليم الاستمرارى المهنى فوجد ان نسبة المعلومات التى يحملها الطفل من المدرسة الابتدائية الى المدرسة المهنية هى فى غاية الضآلة . وان الطلاب لم يبدوا اهتماما باستمرارهم على الدراسة بعد المرحلة الابتدائية . وان المنهج الدراسى لا يتصل الا قليلا بحياة الطلاب اليومية وان الطلاب يحملون فوق قابليتهم من المواد الدراسية . وان الساعات المحدودة التى تعطى للموضوع الواحد لا تسمح باتقان ذلك الموضوع وتطبيقه بحيث تكون النتيجة ذات فائدة ثابتة . وان الدراسة تعطى مساء حين يكون الطلاب قد تعبوا . والمدرسون بدورهم لم يكونوا مكترثين بمهامهم . الصفوف (الاقسام) مزدحمة بطلاب ذوى

قابليات متفاوته . والاولاد العاملين لم يلاقــوا تشجيعــا من مستخدميهــم على الدراسة بل كان هؤلاء يفضلون بقاء الاطفال ناقصى المعرفــة ليظلــوا تحــت رحمتهم .

فى ربيع 1900 قام المجمع العلمى الملكى البروسى للمعارف النافعة بنشاط تربوى واسع النطاق . ومن ذلك تخصيص مكافأة لمن يحوز قصب السبق فى الكتابة فى الموضوع التالى : « كيف نربى شبابنا الذين تتراوح أعمارهم فيما بين الرابعة عشرة والعشرين من سنى حياتهم أى من حين تخرجهم من المدرسة الابتدائية الى حين دخولهم الخدمة العسكرية كيف نربيهم تربيــة تعدهم لأن يكونوا مواطنين صالحين فى جسم الدولة الاجتماعى ؟ »

ان كرشنشتاينر كان يدرس أحــوال الشباب فى هــذا السن واحتياجاتهم التربوية منذ بضعة سنوات وكان قد أعد الخطط والاصلاحات لتربيتهم فدخــل المسابقة وكان بحثه الفائز بالجائزة الامر الذى أحدث ثورة كبرى فى التفكير التربوى فى ألمانيــة .

آراء كرشنشتاينر وفلسفته التربويــة :

هانحن فيما يلى نستعرض بعض آرائه التربوية بايجاز كلى :

أهداف التربية تنمو من كل معتقدات الشعب وعليه فــلا يمكــن ان تفرض أهداف التربية لاى شعب من الخارج كما لا يمكن لاى شعب أن يستورد أهداف تربيته من الخارج .

التربية تعتنى باعداد الانسان أخلاقيا وعقليا وتقنيــا .

ان التربية الاخلاقية التى تعنى بالاخلاق النقية انما تتحقق بتغلب محبة فعل الخير فى الانسان على كــل المؤثرات الاخرى . ولذلــك فهى أى التربيــة تعرف الانسان ما هو الخير ؟ وهذا لا يتم بالتعلم اللفظى والحفظى بل بايقاظ الشعور الاخلاقى فى الطفل من بداية نشأته . وعلى هذا الشعور تؤسس العقائد الدينية وادراك الطالب حكمة الله ورحمته ولطفه . ولذلك فيصبح الدين جزءا أساسيا من المنهج التربوى .

والتربية العقلية بدورها تقرب الانسان من الاخلاق الصافية • فالمعلومات بدن أخلاق تكون ضارة • والتربية مدعوة لان تجعل من الانسان عنصرا نافعا فى المجتمع • ان بعض المهارات التقنية يحتاج اليها كل انسان فى حياته تقريبا ولذلك يصبح من الضرورى تأسيس مدارس العمل Arbeitschle للبنين والبنات بحيث تتعاون هذه مع المدارس الأكاديمية أى النظرية • وينبغى أن يدخل كل الناشئة مدارس العمل حتى الذين لا يحتاجون الى العمل لكسب معاشهم • اذ أن الظروف قد تتغير فيفقد المرء الثروة التى ورثها وانه لمن الخير لكل انسان ان يتعلم تقدير المنافع التى تحصل من قدرته على كسب رزقه • وان يحمل الاحترام اللائق للانسان الذى تعلم ان ينتج الثروة عن طريق الكد والاجتهاد » •

ان الهدف التربوى فى بلد دمقراطى دستورى هو تهيئة مجتمع مكون على قدر المستطاع من أشخاص ذوى فكر مستقل ونشوء منسجم وضمير أخلاقى حـر »

هذا وقد لقيت آراء كرشنشتاينر التقدمية فى تكوين المواطن الحر المنتج انتقادات حادة من الاوساط المحافظة الامر الذى حمله على وضع كتابه « فكرة مدرسة العمل » Begriff der Arbeitschule فالمواطن فى رأى كرشنشتاينر ليس أداة طيعة فى يد الدولة • بل هو عنصر فعال يساهم فى شؤون الدولة والطفل يبدأ بأن يكون عنصرا فعالا فى عائلته • وفى المحيط العائلى تحدث التفاعلات بين الافراد ويساهم الجميع كل حسب مقدرته فى تأدية مهامه لخير المجموع • والجو العائلى السليم فى نظر كرشنشتاينر هو مرآة مصغرة لما يجب أن تكون عليه الدولة من حيث الترابط والتفاعل بين الافراد • ففى المحيط العائلى السليم ينشأ الفرد فى جو يراعى فيه حقوق الافراد ويمارس الغيرية ويحترم آراء الآخرين ومصالحهم • كما أنه ينشأ على الامانة والاستقامة•وهو فى البيت يتعرف على الدور الذى تقوم به الدولة والدور الذى يقوم به هو فى خدمة الدولة • وكما ان واجب العائلة يتناول غرس فكرة الدولة وتهيئة الفرد للعضوية فى الدولة كذلك نستطيع القول بأن عمل الدولة يتناول غرس وتنمية الفكرة الانسانية » و « المواطنة العالمية » فان نحن ربينا مواطنين صالحين للدولة فانا نكون قد ربينا مواطنين صالحين للعالم فى الوقت نفسه • **العمل أى الشغل هو المحور للتربية** فقد قال كرشنشتاينر « لاجل أن يكون الشخص كاملا لا بد أن يكون مفيدا أى منتجا أولا • والشخص المفيد هو ذلك الذى يقدر أهمية عمله وعمل مواطنيه والذى يملك القوة والارادة لانجاز العمل » • وقال أيضا « ان

الهدف النهائى لكل المدارس التى تعتمد على موارد الدولة هو أن تربى الطلاب ليصبحوا مواطنين نافعين (منتجين) ٠ والمواطن النافع هو ذلك الذى يعمل مباشـرة أو بالواسطـة على تحقيـق أهداف الدولـة لتحقيق مجتمع متمدن وقانونى » ٠

وعليه فان التربية العملية المهنية هى الأسـاس فى التربيـة التى يريدهـا كرشنشتاينر وهو فى ذلك يقول : « وعليه فكل مدرسة بما فى ذلك المدرسة الابتدائية تتحمل مهام ثلاث فى الوقت نفسه وهذه المهام تتضمن كل أهداف التربية وهى باختصار :

1 ـ تربية مهنية أو على الاقل اعداد للتربية المهنيـة ٠

2 ـ جعل التربية المهنية تربية أخلاقية ٠

3 ـ تدريس القيم الاخلاقية للمجتمع الذى فيه تمارس المهنة ٠

ان كرشنشتاينر يرى أن التربية التقنية الحرفية هى المرحلة الاولى فى تحقيق هدف التربية النهائى ألا وهو تكوين مواطنين بعيدين عن الانـانية اخـلاقيين يرغبون بحرارة فى دعم الاسس الاخلاقية التى تقوم عليها الدولة ٠

يضاف الى التربية المهنية التربية المدنيـة التى تعرف المواطـن بجهـاز الدولة ووظائفه وتعرفه بأهمية رفع كفاءته الشخصية الى أعلى المستويات لدعم هـذا الجهاز ٠ فان التأكيد على النجاعة المهنية هو الشرط الاساسى للتربية المدنية ٠ والنجاعة المهنية تملأ نفوس الناشئة بالفخر والسرور والاعتزاز بما ينتجونه لانفسهم ولدولتهم ٠

ان الهدف الاول فى التربية للاطفال الذين ينهـون المدرسـة الابتدائية هو اعدادهم للنجاعة فى حرفة وحب الشغل ٠ ويرتبط بهذا اعدادهم للفضائل التى تتطلبها النجاعة وحب الشغل مثـل : **حساسيـة** الضمير **والاتقـان والمواظبة والمسؤولية** وضبط النفس والاخلاص فى حياة فعالة ٠

ويلى ذلك مباشرة الهدف الثانى ألا وهو التبصر فى العلاقات فيما بين الافراد وبين الافراد والدولة وتفهم قوانين الصحة وهـذه المعـرفة وهـذا التبصـر يستلزمان ممارسة ضبط النفس والعدالة والاخلاص للواجب والاخذ بأسلوب حياة معقول يتسم بالشعور القوى بالمسؤولية الشخصية ٠

ونستطيع أن نسمى الهدف الاول هدف التربية التقنية والهدف الثانى هدف التربية الاخلاقية والذهنية · وهنا ينبغى أن نلاحظ أن الهدف الاول أى الهدف التقنى قد يحوى مناسبات هامة للتربية الذهنية والتربية الاخلاقية معا · كما ان الهدف الثانى لا يتحقق الا بتحقق الهدف الاول بل هو الاستمرار له · اذن ففلسفة كرشنشتاينر التربوية تتلخص فى توحيد النواحى التقنية والذهنية والخلقية فى التربية · والتربية العملية التقنية هى المحور الذى تدور حوله كل فعاليات التربية · فالتربية المهنية تقودنا الى التربية الاخلاقية وتكوين السجايا وهذه بدورها تقودنا الى التربية الذهنية والمعرفة ·

ثم ان كرشنشتاينر يشارك جون ديوى فى رأيه فى أهمية الاولاع فى التربية فالدراسة قد تكون جافة ومملة اذا كان الطلاب يدرسون ما لا يهمهم ولا يمس احتياجاتهم الحقيقية · « وجذور الاولاع هذه هى فى النهاية احتياجات الفرد جسديا أو ذهنيا أو روحيا » ·

فولع الاطفال باللعب والبناء وولعهم بالاجتماع بغيرهم وباصدقائهم وولعهم بالاطلاع والسؤال وولعهم بالبحث عن صور أو طوابع يجمعونها أو غابة أو بحيرة يزورونها كل هذه تحرك الاولاع وتحرك الطالب نحو العمل · والمدرسة التى لا تغذى الاولاع المربية للاطفال تقصر فى مهمتها · فبالاولاع يتعلم الاطفال وينجزون الاعمال بهمة واندفاع ·

ومن واجبات المدرسة ان تنمى الغيرية عند الاطفال · فقد توصل كرشنشتاينر الى أن أهم ما يحرك الانسان نحو العمل قوتان هما : الجوع والحب · فلتلافى الجوع يسعى المرء بلا كلل عاملا باحثا عن القوت وهذا عمل أنانى · وفى سبيل الحب يعمل المرء المعجزات وهذا عمل غيرى · مع العلم ان الانانية والغيرية متلازمان فى النفس الانسانية الواحدة · فقد يمارس الانسان الغيرية بدوافع أنانية بحتة فى البداية فانه يريد رضى الناس عنه لكى يرضى نفسه · فالمهم اذن خلق المثل العليا والمسميات التى تجعل الفرد يجد سروره فى خدمة الغير والتعاون معهم · وتستطيع التربية ان توجه الافعال الانانية للطفل فتجعل منها غيرية · ولكن ذلك لا يكون بالمواعظ والخطب بل بالعمل فبالانانية مثلا يستطيع الطالب أن يعمل عملا غاية فى الاتقان عملا يفتخر به ولكنه فى الوقت نفسه هو عمل للصالح العام · والمرء قد يمارس العطاء والبذل فى سبل الاحسان لحب الشهرة وفى ذلك أنانية ولكنه فى الوقت نفسه يقوم بعمل غيرى · فواجب المربى اذن أن ينمى فى الطالب معرفة الخير وحب عمل

الخير • وبنموه الذهنى يرتقى بالدوافع من الانانية الى الغيرية بحيث تصبح الغيرية وعمل الخير سجية ثابتة فى المواطن •

ان الاخلاق أو السجايا الفاضلة كما يرى كرشنشتاينر تتكون من عوامل أربعة : (1) الارادة (2) ووضوح التقدير والحكم (3) والحس المرهف (4) والمقدرة على الالتزام نفسيا فى الموقف •

والارادة أى العزيمة هى العامل الاهم • وهى ما يجب أن تعنى المدرسة بتكوينها ، فالارادة هى التى تدفع الى العمل • أما الاحلام والافكار التى تبقى بدون تنفيذ فلا تنتج الخير للفرد والمجتمع ما لم تقترن بارادة • ووضوح التقدير يتطلب استعمال العقل والمحاكمة والمنطق للتمييز بين الخير والشر فيريد الخير والحس المرهف عبارة عن استعداد الروح لان تتحرك فتحرك الانسان وهى خاصية يمتاز بها الفنانون • انها قضية تغذية العواطف والشعور الذى يدفع الفرد نحو عمل الخير • وأما الالتزام بعمل الخير أو التقمص به فهو ما يجعل المرء يقبل على الفضيلة ويتحرك نحوها طواعية • فهو يمثل الاصالة فى الاخلاق ضد التصنع والتكلف • وانه يمثل درجة تعلق الروح بالفكرة أو السجية ودرجة ثبات واستمرار هذه الحالة الروحية •

هذا وان العمل فى رأى كرشنشتاينر هو الذى يحرك ويستقطب روح الطالب وولعه وحرصه على التفوق والفخر والمباهاة بما ينجز وهو الذى يبنى الاخلاق • ثم ان كرشنشتاينر يعنى عناية خاصة بقيام الجماعة بعمل مشترك تعاونى بحيث ينمى روح الوحدة والانسجام بين الطلاب • فالعمل على اختلاف أنواعه من حرف ومهن العمل البيتى والعمل اليدوى فى الحقل وفى المعمل وفى المتجر وفى الحانوت كل ذلك يصبح المحور الذى تدور حوله التربية الذهنية الاكاديمية والتربية الاخلاقية • أضف الى ذلك حب الطبيعة والرياضة البدنية والفنون الجميلة فهذه كلها تكون المنهج التربوى الذى يدعو اليه كرشنشتاينر • وله كما سبق أن أشرنا آراؤه الخاصة فى الفن وفى تدريس الفن • وهو يعنى عناية خاصة بمنهج اعداد الفتاة لتكون ربة بيت ولتكون أما صالحة • وانه صريح كل الصراحة فى ان المدرسة وحدها لا تستطيع ان تقوم بكل أعباء التربية • فالبيت هو المدرسة الاولى وتليه البيئة الطبيعية والاجتماعية والمدرسة تأتى بالدرجة الثالثة ولذلك فدور الام يكون دورا أساسيا فى تربية الطفل فيجب اعدادها للقيام بهذا الدور على أفضل وجه •

ولقد نجح كرشنشتاينر فى اعادة تنظيم التعليم فى مونيخ وجعـل التربية المهنية الاستمرارية اجبارية لكل الاولاد الذين ينهـون دراستهـم الابتدائيـة فيستمرون على الدراسة الى السن الثامنة عشرة وهو بذلك كسب شهرة واسعة فى سائر أنحاء ألمانية وفى أروبا والعالم المتمدن •

بقى كرشنشتاينر على رأس ادارة المعارف فى مونيخ الى سنة 1919 اذ تقاعد بعدها • وكان قد سمى فى السنة السابقة لتقاعده استاذا شرفيا للتربية فى جامعة مونيخ فبقى فى هذا المنصب ووجد الفرصة سانحة لدرس فلسفة التربية ووضع المجلدات العديدة فيها كما ساهم فى الحياة السياسية والمدنية وقد توفى فى سنة 1932 •

وربما كان أهم ما أثار الجدل حول منهجه هو دعوته الى التخصص فى العمل بدل الثقافة الاكاديمية العامة التى يتمسك بها أصحاب المدرسة التقليدية فى التربية • وفى الحقيقة ان المجتمع الحديث يشكو من المدرسة التقليدية التى تخرج شبانا لا صناعة لديهم سوى صناعة الالفاظ والنظريات يهربون من الاعمال التى تتطلب استعمال اليد ويتكلمون أكثر مما يفعلون • ولذلك فهم قد لا يحسنون الانتاج كما قد تكون سيطرتهـم على النفس ضعيفـة • هذا وان التطـرف فى الاختصاص فى المهنة ليس ضروريا اذ يستطيع الشاب الذى يحسن استعمال يده وفكره معا الانتقال من عمل الى آخر فيما اذا اقتضى الامر بظهور مخترعات جديدة مثلا • والعمل الصناعى أو الزراعى أو التجارى أو البيتى يمكن أن يكون مثقفا اذا رافقه اتساع الافق ورؤية العلاقات بين ما يعلمه المرء وحاجة المجتمع للبقاء والازدهار بحيث يجد العامل لعمله تقديرا وقيمة اجتماعية معترفا بهـا مهما كان نوع عمله • فالعمل قد يثقف ثقافة ذهنية وقد يهذب الاخلاق أكثـر مما تفعل الكتب والمحاضرات التى لا صلة لها بالحياة • وهنا أيضا نجد تقاربا وتلاقيا فى النظرة التربوية بين كرشنشتاينر وجون ديوى • وفى الحقيقة ان كرشنشتاينر يمكن أن يعتبر فى مقدمـة المربين المجددين الذين جمعـوا بين القول والعمل وقدموا العمل على القول • وهـذا من مزايـا التـربية الالمانية الكبرى فان الطالب فى ألمانية يدخل المعمل ويمارس العمل أولا ثـم يـدرس النظريات المتعلقة بعمله وهو عكس الاسلوب المتبع عادة فى انكلتـرا وفـرنسا حيث تسبق النظريات العمليات • وهذا ما اكتشفته يوم كنت أتـولى شـؤون التربية والتعليم فى العراق فبعد أن زرت مدارس ألمـانية سنـة 1938 ذهبت لزيارة مدارس فى بريطانيا ثم فى فرنسا •

وفى حفلة شاى أقامها رئيس مجلس المعارف البريطانى على شرفى آنذاك سألنى هل ما تزال تشهد بأن التعليم التقنى فى ألمانية هو أفضل منه فى بريطانية أجبته نعم يا سيدى • وهنا من الانصاف أن أقول أن بريطانية قد وثبت وثبات عظيمة فى حقل التربية عامة وحقل التربية المهنية والتقنية خاصة منذ الحرب الحرب العالمية الثانية الى يومنا هذا وقد يصدق القول ذاته على فرنسا

والآن نعود الى البلاد النامية (وهو ما يدعوها البعض بالعالم الثالث) ومعظمها بلاد قد استقلت سياسيا حديثا وان لم يتحقق استقلالها التربوى بعد فلو سئلنا ما الذى نستفيده نحن أبناء البلاد النامية من درسنا لحياة كرشنشتاينر وآرائه فى التربية لأجبت بايجاز كلى :

لا شك فى أننا نتفق معه تماما بأن أهداف التربية لا يمكن ان تستورد من الخارج ولا يمكن ان تفرض من الخارج ولذلك وجب ان نحذر تقليد النظم والمناهج الغربية تقليدا سطحيا ولا سيما فيما يتعلق بلغتنا وتاريخنا وآدابنا وديننا • ثم ان المناهج الابتدائية عندنا تحتاج الى تحوير أساسى بحيث تبنى على فعالية الطفل واحتياجاته فى محيطه • فهى تحتاج الى ان تصبح مناهج أفعال حياتية يساهم فى القيام بها الطفل أكثر من أن تكون مناهج لفظية وحفظية • ولكن المشكلة العظمى التى تجابهها البلاد النامية هى فى توجيه الناشئة بعد المرحلة الابتدائية • فالكثيرون من أبناء البلاد النامية يريدون الفرار من العمل المنتج بعد الدراسة الابتدائية • والمدرسة الابتدائية لم تحبب اليهم العمل • والمجتمع يمنح الامتياز والحظوة للتربية النظرية الاكاديمية • فهنا تحتاج النامية الى مربين من أمثال كرشنشتاينر يحدثون ثورة تربوية • ثورة فى القيم الاجتماعية وثورة فى المناهج والاساليب التربوية • بحيث تكثر المدارس المهنية والحرفية وبحيث تدخل الاعمال الانتاجية الى صلب المناهج فى المدارس الاكاديمية من الابتدائية فصاعدا • فلا يخرج شاب مهما كان اختصاصه من دون أن يحسن استعمال فكره ويده معا مع ذلك مع التأكيد على التربية المدنية والاخلاق الفاضلة المؤسسة على العقيدة الدينية الصافية •

هذه لمحة وجيزة وسريعة عن كريشنشتاينر وآرائه التربوية أرجو أن تحمل البعض منكم على تعلم اللغة الالمانية ليتوغل فى درس آراء كرشنشتاينر من منابعها الاصلية ويعمل على نقلها الى لغتنا العربية المحبوبة (*) •

ف • ج •

(*) محاضرة ألقيت على منبر مدرسة ترشيح المعلمين بتونس فى 14 ـ 2 ـ 074

شجرة وسط الفيضان

قصة بقلم : عبد الله الخلايفي

... بداية الدوار هاجمته فجر يوم رمادى . إستيقظ فى ساعة مبكرة والسماء صوف معتم ينوء تحتها زجاج النافذة . شعر أنه يتنفس فى عسر وأن جبلا من رصاص يتراكم فى عمقه . وبدا له أول الامر أنه يجتاز متاهات حلم مزعج ولكنه تيقن أنه صاح عندما لمس حواشى الغطاء بأصابعه . وأعاد اللمس بأصابع قدميه ، كان الغطاء ساخنا مترهلا ، ... الغطاء يبتعد عنه والسماء وراء النافذة قريبة وخانقة . غرفته اسفنج ينضح باللامعنى .

كمش رجل السرير فلذعه صقيع الحديد وعندئذ وقف على حقيقته مدهشة : الاشياء تتوارى نافرة خلف ستارة من تحد فظيع . وفى الخارج كان ضجيج السيارات خافتا كصراخ غريق فى جب عميق ، وتعجب من أن يفقد أزيز المحركات حدته بهذه السرعة المذهلة وهذه السهولة الغريبة ، فداهمه خاطر عنيف ، أن يندفع ويرتمى خارج الجدران حتى يسمع السيارات وهى تهدر وحتى يتنفس اسمنتا ومازوطا ،، محاولة النهوض انهزمت أمام سريان خدر ثقيل ،، تأودت أضلاعه حتى صارت مطاطا أنهكته الشمس ،،، وعظام رأسه تتداخل متعانقة ، لم يعد يحمل رأسا بل قبة خربتها القنابل ، جوفها يمور خطوطا وزخارف عربية . أسئلة وخواطر عديدة تدفقت عليه من كل جانب طانة كالذباب . أبوه يغيب عن البيت ولا يعود الا بعد أسابيع طوال ، أمه تبكى حين يرجع أبوه الذى يكتفى بنفخ أشداقه المزروعة شعرا وشحوبا . وهو صغير يتساءل عن سر تغيب ذاك وبكاء تلك . واليوم يطرح السؤال لكن بطريقة أخرى : لماذا تبكى أمه ؟ كم كانت غيبة ؟ ... جده مات ذات يوم ، حرقت أعماقه الكحول وأشياء أخرى تحدث عنها كثيرا طوال حياته ولا يذكر منها الا كلمتى : سل ... فناء ...

رفض المؤدب أن يصلى على جثة جده المعفرة بالوحل والقيء ، وكان الوحيد الذى سالت دمعاته والتراب ينهال على الجثة المتعبة ، وعندما عاد من المقبرة بصق على المسجد ولم يدخله بعد ذلك .

على الكرسى الخيزرانى معطفه الملوث برشاش المطر والطمى ، وفى المطفأة أعقاب سفاير « أرتى » مسحوقة ، ولكنها بقيت كسرب من أقزام منتصبة على شكل دائرى أقزام تتحرك ، تتراقص كقوم من الصوفية ساعة الوصل ،، وفوق المطفأة صورة لفتاة مجرية بريئة العينين ، انتزعها من كتاب قديم . أعجبته بسمتها الثلجية وخداها الملتهبان ... واليوم هى ألياف وأصباغ ... ألياف وأصباغ وكفى ، لا شك أنه تسكع البارحة طويلا بعد أن قضى ساعات طوالا مع طالب روسى اسمه « راسكولنيكوف » فى كتاب « الجريمة والعقاب » .

وفى لحظة ما وهو مستغرق فى القراءة كور يده ولوح بها فى الفضاء . « لم يكن راسكولنيكوف » مجرما البتة . والآن ، « راسكولنيكوف » حبر وكلمات شوهت ورقا أبيض ... ورقا فارغا ... فارغا تحطم الرباط المقدس الذى كان يشد كلا الى الآخر ... وكتب أخرى مل أشخاصها وهم يجرون تحت أصابعه وعينيه كالفئران ! ،، ولم يكن له مناص من أن يخنقها وبعضها يحبو والآخر ينتظر الموت فى خضوع كريه .

منذ أسابيع شعر أن « سلمى » صخورا مخززة يرتطم بها ويعود دامى الجبين ولا يستطيع مسح الدم ، و « سلمى » بعثت له أمس رسالة ... وسلمى تحبه ... وسلمى زوجة رجل آخر ... وكلمات أخرى أجران فارغة تصفر فيها الريح ... ورسالة سلمى ترقد تحت المخدة تنتظر الافتضاض .

« غدا آتيك لامزق ستائر الغربة المضروبة حولك ، وأمسح الرمد عن عينيك ... سنمشى معا حتى تتهرأ أحذيتنا ، حتى تموت امتدادات الشوارع فى أحداقنا ، كل شيء فيك جميل : صنان إبطيك وعرقك المالح يتصبب ، وعيناك تهويان فى الحزن كالرجم . »

... « لن نأكل فى مطعم كبير بل سنكتفى معا بصحفة « كفتاجى » يشتعل زيتها وتلتهب وجنات بطاطسها . سندخن أتفه السجائر . ولكننا سنكون سعداء ... وما أصعب أن نكون سعداء عندما نحس أسنان التمساح حادة ترحى الاعصاب والنخاع .. »

كم أنت غبية تزدحم الاحلام فى رأسك الصغير وينبت الوهم على جدرانه طحالب مريضة . قد لا يستغرب منك فانت التى قلت لى يوما : « الحب نتانة متبادلة ، وقد يكتبها المراهقون بالحرء على جدران المراحيض ، ولكنها نتانة جميلة وضرورية .. » .

أية طيبة فى ابطى. رائحة عرق زفرة تقلب الامعاء وتدير الرأس. والسجائر التافهة تأويل لقلق نمتلىء به معا ونحن نتصفح جدران السجن المحيطة بنا : شفتاك أسوار الزنزانة ونهداك سرير الصقيـــع !

كل شىء كنا نظنه جميلا حين يشاهده الواحد منا بعين الآخر . سنابك الخيل تجر العربات مع الفجر ، وسمفونية الجلاجل الصدئة أنشودة حب . كان كل شىء جميلا أو هكذا كنا نظن على الاقـل . أحيانـا كنت أنسـاك . وأغـوص فى صدفتى مقرورا ، كنت أليافا وأصباغا أنت الاخرى كهذه الفتاة المجرية . قلت لك يومـا :

كل شىء هنا متاريس ضد القلق والعزلة ... الكتب قلق تخلق منه واليه تعود ولكنها صفقة أقل خسارة من الصفقات الاخرى ، والابناء صناعة قديمة ، السياسة رداء لامع ولكن صاحبه يرتعش . وأجسام النســاء أوراق يأكلهـا الاصفرار كالكتب ... وغبى من يتدثر بأهداب امرأة ! » .

لقد كنت تكذبين على وكنت أكذب عليك ، والنقود التى تعاملنا بها كانت مزيفة . لم يكن وقع السنابك سوى أجراس الخطر ، تنذرنا أن الوحش الذى رمانا بين يدى بعضنا بعضا سوف يظهر وينفث على وجودنا دخانه ولهيبه . سيهدأ قليلا وراء هفهفة القبلات وحرارة العناق وبعدها سيندفع محطما زجاج النوافذ ليكسر ضلوعنا بقبضته الحديدية ويمتد افعوانـا فى أعماقنـا نسمع فحيحه وهديره وهو يشخر نائما . وسنعود نلهث وراء أردية جديدة . ألم أقل لك يوما :

— « سأكسر قلبك فأنا طفل صغير يكره وجها واحدا وتضجره لعبة واحدة!

ضحكت وشعرك المنفوش فى فمى أسلاك شائكـة :

« وأنا امرأة مجربة ... خبيرة فى ترويض الشياطين والمردة !

وقلت لك وفى العمق يمتد بحر آسن من الضجر :

— لماذا تركت زوجك وارتميت بين أحضانى السرابية .. لماذا لم تروضى زوجك ؟

قبلتنى على الجبين قبلة امرأة فى الاربعين . كنت خائفة متلفتة ، وكانت شفتاك المشنقة الوحيدة لاعدام السؤال الجاثم على شفتى .

لقاؤنا الاخير كان يوم السبت . غرفتى كانت مهوشة ، مهزوزة الاثاث .

كرسيى الخيزرانى يقبع فى ركنها شيخا متقاعدا

ـ « كم هى رائعة غرفتك يا حبيبى ! رائحتها تنز بالحياة !

أثارت فى ملاحظتك احساس أنى مرتبط بك وأنك قدرى ٠ الغثيان أمامى وأنت ورائى وأنا أقف مشدودا كالسهم بين عينيك والعدم !

ذاك المساء مرت اللحظات متثائبة بالنسبة لى ، كانت آخر ساعات سجين وقلت وأنت تلفين جسمك المتمرد فى معطفك الضيق :

ـ « كم هى قصيرة ساعات لقائنا ٠٠٠ زوارق بخارية أو ومضات برق صيفى !

فى التاكسى الذى ركبته وإياك ، كنت أتوسد ركبتيك ، وشعورى أننا جثتان تنتظران الدفن ، تمنيت ألا يقف « التاكسى » ، وأن يزيد السائق فى السرعة ، فربما اصطدم بسيارة أو بجدار أو بعمود فينطلق السهم ٠ ولكنه كان يسير حسب رتابة الاضواء الباهتة ٠

وعندما ودعتك وعدت الى غرفتى ، كان جسمى قشرة تين أشعلتها الشمس ، وفى خياشيمى رائحة أوراق ميتة ، وعندما نظرت فى مرآتى المشروخة كان وجهى أصفر هجرته قطرات الدم وخندقت فيه الاحزان فقررت أن أهرب منك ، ومن الكتب ، ومن عينى الفتاة المجرية ٠ ولكنى اكتشفت وأنا انفض الغبار عن حقائبى أن دمى مباح لاية امرأة مثلك فى كل أرض ألجأ اليها لانى لا أكسب البديل ٠ كنت شيطانا مرعبا يسكن جسم فاجر ، ويستعصى على التعاويذ والتمائم ٠ وتذكرت أنى قلت لك ذاك المساء :

ـ « مصير مرعب أن أموت على صدرك ٠٠٠ أن أفقد حتى حياة الحزن وأنا أروم دفن الحزن بين نهديك ٠٠٠ لقد قرأت فى كتاب لا أذكر عنوانه أن رساما طلق ألوانه وأصباغه ومات فوق صدر احدى فاتناته » ٠

ضحكت ضحكة عارية وقلت :

ـ « سأحملك جثة هامدة فى صدرى لندفن معا ٠ سأقبرك بين نهدى طول العمر ! » ٠

ثم انشقت شفتاك موجتين فى البحر ، وعادتنى صورة « موسى » على تخوم سيناء والبحر يبتلع « فرعون » • وغرقت وغرقت • ناديتك والموج يلتهمنى وصرخت فيك والاسماك والتماسيح فاغرة الافواه ولكنك كنت خرساء وصماء• غزت الملوحة لسانى وتشققت شفتاى عطشا ، فنهلت من جسمك • نهلت حتى أصبحت ضفدعة تريد أن تصبح ثورا • ولما أوشكت على الانفجار تركتك طافحة وابتعدت عنك مهمهما :

ـ مستحيل •• مستحيل أن نرتوى !

وقفت أمام هذه النافذة عارية ووجهك انكسار وشىء آخر غامض وقلت :

ـ « من أجل استحالة الارتواء بحثت عنك وسللتك كالشعرة من بين عجين البشرية • زوجى يتصنع الارتواء ، ينهق كالحمار وينام وأنا الارض تقام عليها صلاة الاستسقاء • أنا سعيدة لانى وجدتك • ماذا يحدث لو لم تحملنى قدماى مساء ذلك اليوم الى « مقهى الزنوج » كنت تجلس أمام قهوة سوداء ، أهدابك تحرث الفراغ • يومئذ أدركت أنك بغيتى • »

ـ « لقد سئمت تكرار البدايات ••• متى ستكون النهاية ؟ انـك كابوس مرعب ـ كالحيـاة ـ لن أغنم منك الا انتظـارا وقلبا للأمعاء ولهثا وراء أرديـة كاذبـة • »

أشعلت عقب سيجارة نسيت أن أكمله على حافة الطاولة فانطفأ وقلت :

ـ تتطلع الى النهاية ••• أصعب ما فى عصرنا انهاء البدايات !

تبين له أن سلمى هى الشجرة الوحيدة وسط الفيضـان ، شجرة تتمايـل لتهوى بين اللحظة والاخرى ولكنها شجرة تقف فى الماء رغم كل شىء ، وبامكانها أن تستمر دقائق وربما ساعات قبل أن يأتى السيـل على جذورهـا •

ع • خ •

الرديف



Dr Sophie Goltseva

قلـــزاف

اسمها الآن : مدام قلزافاي

واسمها في بيت أبويها : صفيـة

للشاعـر : محمد السنهورى

مَا أنْتِ لم أعهدك يا (قلنزافُ)   والأنس ، كلَّ هنيهةٍ آلاف !

والقوّة الغلباء في لحظاتها   وبنات حوّاء الضعاف ضعاف

قُلْ في نساء الحي : إن تلك هذه   بنتًا ، فكلّ بناتهنّ خرافُ

ما الحسن؟ما الحسناء؟ما بيض الدُّمى   ما دُرَّة الاصداف ؟ ما الاصداف ؟

مَا زهرة الوادي التي في رملها؟   ما بانة الجرعاء ؟ ما الاعرافُ ؟

بل ما الظِّباء الدُّعجُ ؟ ماعين المها؟   ما جؤذرُ الأحقاف ؟ ما الأحقافُ ؟

ألفاظ ما يعني الكلامُ وإنّما   لم تعنك الالفاظ يا (قلزاف) !

وعنَتْكِ أعنانُ السماء بما أرَى   الوجه نور والجنان الرّاف !

شقراء ، ناصعة الثياب كأنّها   ملَكٌ ، تحدَّرَ من علٍ ، رفّافُ !

حُوريّة الفِردوسِ ؟ أو ما حورُها؟   إنْ لم تكنك فإنها أطيافُ !

صُنعٌ مِنَ الخلاّق كادَ يؤوده   زِيُّ الأطبّةِ : مِئزرٌ ولِحافُ !

والعلم في أعطافِها مُتأوِّدٌ   والحكمة الغرّاءُ والإسعافُ !

وتظل تسرِفُ في العناية جُهْدَها   فيكاد يرهِقُ جسمَها الإسراف!

كالنحلة الرّبداء في زهر الربى   والشّهد مسدول عليه غلاف !

وَالناسُ مِنْ حول الفتاة كأنّمَا   بُهِتوا وَأعوزَ مِنْهُمُ الإنصاف !

مَا بـا لهم لم يأ خذوا بنفوسهم ... فـإذا رَأوكِ استبشروا وانـافـوا ؟
مـا بـا لُهم لا يذهلـون تشـوّقـا ... فإذا طلعت ، عـلا الجميعَ هُتَاف !

* * *

أوَزِيرَ صحَّةِ (تونس) من أيْن ذي ... إنَّ الكـريـم لـمثلهـا مـضيـاف
ما زلتُ أنظرُ ، كُلَّ يَوْم ، لطفكم ... حتَّى سرَتْ في نَاظِري الألطاف !
طَوَّفْتُ في البلدان أحمل علتي ... بيـن الجفون وَشَفَّني التطوافُ !
وملِلتُ أسئلـة الأحبَّـةِ وُلَّهَا ، ... والشامتين . وَدَمْعِيَ الوكَّافُ !

* * *

مالي؟وفي (القصرين) كسموس الشفا ... قُرْبي وَ(فَالنَتينه) (نُلْزَافُ) !
قذفتْ بها، في اليافعات، على النّوى، ... نَحوِي على الدَّاء المكين (كِيافُ) !
وَدُفعتُ دَفْعًا في النّهايَة للتي ... لوْلاَ تَمَرُّدها طغى الإدْنَافُ !
وَإذا الأطباء الذين رَأيْتهُمْ ... إنْ قيس أكْبَرُهُم بِها إسكافُ !
وَإذا بِجِنّبي ، بِالـكـبرِ غوايتي، ... أيد على طَرَر العيون لِطَافُ !
أيد يكادُ الطُّهرُ منها يَنْهمي ... ويفوح من خلل البنان عفافُ !
أيْدٍ رَشَفْتُ النُّورَ من أطْرَافِهَا ... أيَّامَ عُذْرِيٌّ الهوى رشافُ !
أيد تُهدْهد ، ناعمات ، مُهجتي ... حتَّى كَأنَّ بَنَانَهُن شَغَـافُ !
أيْدٌ تُزيحُ الجفْنَ عَنْ مرمَدَه ... وَالجفْنُ مُشْتاقٌ لها مُشْتَافُ !
تَهوِي إليَّ بِنَظْرَةٍ مَمْشُوقَةٍ : ... « سَـامٌ » العيون مُهدَّدٌ لَقفـافُ !
وَالدَّاءُ مَذعورُ الـكيان ، مُقلقلٌ ، ... والقلب مسرور بِهَـا ، وَجَّـافُ !
لله قَـوْمٌ رَكَّبُـوكِ غَـرِيـزَةً ... مَا إن خُلِقْتِ بِمثلها فأضَافُوا !
يَانظرةً مِنْ قلب عين (صَفِيَّة) ... تُلقيك في عَيْنَيَّ وَهيَ تَرَافُ !
وتُسَرُّ من مَسكنُونِهَا إذ مَا تَرَى ... أنَّ العـلاج عليهمـا زَحـاف !

يا أُختُ تَفديكِ العيونُ بأسْرِها ... وَفَدَى (صَفِيَّةَ) مَعْشَرٌ أجْلافُ
دَعني مِنَ الآلاتِ دَعْ أفّاكها ... حسبي الفتاةُ ولحظها العرّافُ
تلغو بإسْداءِ النَّصيحةِ حُلْوَةً ... وَالنُّصْحُ من شفة الحبيب سلافُ!
إنّي لأسْعَدُ ناظِرٍ إذْما أرَى ... هذا المَلاكَ لجانبي يَنْضافُ!
لمْ ألقَ هذا الجِنْسَ إلاّ حينما ... برزت به (لاتَ) الوءى تصْطافُ!
في مائجِ العرفان كفكفَ لُجَّهُ ... كَرَمُ الخِلالِ كأنَّهُنَّ ضِفافُ!
نَفَضْتُ أيّامَ السّقامِ كأنَّها ... حُلمٌ ألَمَّ فأيقظتْ (قلمزافُ)!

* * *

دغدغتُ إحساس البنيَّةِ، شاعرًا، ... فإذا الذي لَمْ أدْرِهِ أضْعافُ!
وإذا العواطِفُ وَالشّعورُ أحَبُّ ما ... يَجري على نفسي وَهنَّ خِفافُ!
وَالرّأيُ مصقولُ الجوانبِ يلتظي ... حِكَمًا وآراءُ اللبيبِ حِصافُ!
وَالقوْلُ مسْرودٌ علَى مُرتّلٍ ... عَبِقُ العبيرِ، مُعبّرٌ، شَفّافُ!
قُلتُ: «الذي أدْرِيهِ أنّكِ آيَةٌ ... في العَيْنِ أنّى كانتِ الأهْدافُ
أفكنتِ أُولى كُلّ قِسمٍ (صَفيَّةٍ)، ... واليومَ أزْهارَ الكتابِ قِطافُ؟»
قالت: «كأنَّكَ حاضِرٌ ياسيدي!» ... قلتُ: «ارْتفاعُ الطَّبعِ؟ وَالإرْهافُ؟»
قالتْ: «وَما لَمْ تدرِ أنّى لي به؟ ... أنتَ الأديبُ البارِعُ الكَشّافُ!
وَلَرُبّما من بَلْدتي، مِنْ موْطِني ... من أسرَتي، وَجدودِيَ، الأوْصافُ.»
قلتُ: «امنحيني صُورَةً أُتحفْ بها ... بَيتي فَيَسعَدَ بَيتِيَ الإتحافَ
وَأرَى بطرْفِ العين، أوّلَ مايرَى، ... تلكَ التي رَدّتْهُ يا (قلمْرافُ).»
قالتْ: «نعم لك ما تريد وَما الذي ... أدّيتَهُ؟ لا شيْءَ، بَل إجْحافُ!
عفوًا، لقد أطْرَبْتَني وَهزَزْتني ... أسَواءٌ الشُّعَراءُ وَالعُزّافُ؟»
تَظُنُّني أُستاذَها! لكنَّني ... (عُزّايَ) تلك وَرَبّتي وَ(إسافُ)!
ما أحسنَ الأُنثى إذا ما زانها ... خُلُقٌ أغَرٌّ وَرِقّةٌ وَعفافُ!

يَا أيُّها البَشَرُ العَزِيزُ تَحِيَّةً   أنتُم أحِبَّةُ نَفْسِيَ الأُلاَّفُ !
يا أُختُ ذَوِّبَنِي جَمِيلُكِ دفْعةً   هلْ لي أوَان ، عندكُنَّ ، نِظافُ ؟
غيَّرْتِ فِكرِي في الحياة بِأسْرِها   فوَدِدتُ أنْ أحيَا وكِدتُ أعافُ !
مَا أحْسنَ الدُّنيا وَأحْسنَ أهْلَهَا   لَوْ أنَّ كُلَّ أنامِها (قَلْزَافُ) !
تلك التِي لَوْكُلُّ إنْسٍ مِثْلُها   مَادَبَّ بَيْنَ العَالَمِينَ خِلاَفُ !
إنَّ القَوَافِي إذْ يَرُمْنَ بُلُوغَهَا   لأقَلُّ ممَّا يدَّعِينَ ، سِخَافُ !
قولي لِشَعْبِ (الرُّوسِ)حِينَ تَرَيْنَه   أثْنَى عليَّ الشَّاعِرُ الوَصَّافُ

م • س
تالــــة

◆ ان الفتاة الطبيبة عالجتنى ، كما تعالج غيرى ، بمهـارة ودرايـة واخلاق عالية جدا ، وكانت لا تعرف ، أيام علاجى ، شيئا من أمرى • فلما شفيت على يدها وذكروا لها أنى شاعر احمل وسام الاستحقاق الثقافى وان فخامة الرئيس العظيم يجلنى ويجل أدبى ، وأنى اعنيها بقصيدة وأرغب فى مقابلتها لأخذ بعض الارشادات عنها اقتبلتنى اقتبال العلماء العظام واعتبرت نفسها ، بين يدي ، تلميذتى الوفيـة ناهيك أنها بقيت طول المناقشة واقفة رغـم اشاراتى عليهـا بالجلوس بين الفينة والاخرى • وقد طربت طربـا لا مزيد عليه خلال المحادثـة التى دارت بينى وبينها ووصفت القصيدة مسبقا بأنها ستكون عصماء لما يظهر لها من خلال الاسئلة التى أطرحها • وذكرت أنها تعتبر نفسها سعيدة جدا بهذا الالتفات من قبلى اليها وانها ستنقل قصيدتى بواسطة أكابر المستشرقين الروس الى اللغة الروسية لتتذوقها أكثر وأظهرت أسفها لعدم دراستها العربية أثناء العامين اللذين أقامت فيهما ببلادنا لكى يتسنى لها ولـو قليلا معرفـة ما فى القصيدة على أصلها وهى تحسن الفرنسية جيدا بطريق الدراسة فما المانع أن تحسن العربية كذلك حسب قولهـا ؟

محمد السنهورى

حاجتنا الى أدب حركي

بقلم : حمادى العبيدى

ماذا نعنى بالادب الحركى ؟ ما هى ملامح هذا الادب ؟ وما هى ضروبه ؟

تلك أسئلة ينبغى أن نجيب عنها قبل أن نحدد موقفا من هذا الادب ، ومن الآداب التى نسميها ميتة أو كالميتة .

إن الادب الحركى هو ذلك الادب الذى لا يقف عند المتعة والامتاع وإنما يتجاوزهما الى تحريك النفس ودفعها نحو الفعل ، نحو تغيير الواقع ، هو أدب التفاؤل والتشاؤم معا ، أدب التفاؤل لانه ملتزم بقضيته وواثق من إنجاحها ، وأدب التشاؤم لانه لا يرضى بالواقع ، فهو أدب ينبع من قيم متحركة تجعل النفوس والضمائر والعقول فى حالة طوارىء على الدوام ، وإن رؤية هذا الادب فى اتجاه واحد هو اتجاه الحياة وسننها ، إنه الادب الثائر من حيث يبدو ساكنا ، هادئا كالبحر ولكن جوفه يغلى بالحياة والحركة .

ذلك النوع من الادب لا نسميه قديما ، ولا نسميه حديثا وإنما هو حياة وكفى ، حياة باطنة وظاهرة : باطنة ما ظلت تحرك من عقول الناس وتغير من نفوسهم ، وظاهرة ما دام ذلك الغليان الباطنى قد تمخض عن قيم جديدة بدلت وجه الحياة وأنبتت واقعا جديدا .

ولكن أين نجد هذا الادب ؟

قد يبدو لنا أن أدبنا المعاصر لم يبلغ هذا المستوى بعد ، ذلك لأن الادب إنعكاس للحياة ، وحياتنا فى معظمها ما تزال تعكس الظلال والاشباح والاوهام ، ما تزال حياة هامشية لم تتركز فيها نظرة صافية مريحة ، نظرة مستمدة من الموضوعية وروح العلم ، وصفاء الفن الرفيع ، إنها ما تزال غائمة حائرة ، لاتكاد تخطو وتنطلق إلا على أضواء خافتة وسرج شاحبة ، غير آمنة من التبعثر . إن مضامين الادب عندنا اليوم ما تزال مضامين الحياة التى نحياها ، فنحن نستمد من هذه الحياة الهواء الذى نتنفسه والخبز الذى نأكله ، ولن نستطيع أبدا أن ننزع أنفسنا من تأثيرها ، وكذلك ما تزال أشكال الادب عندنا باحثة عن نفسها ، لم تستقر على شىء ، وما زالت تكنولوجيا الادب ،

إن صح التعبير ، مثل تكنولوجيا العلم ، تنأى عنا ونجهد فى الوصول إليها فتكون كالسراب الذى كلما حاولنا الاقتراب منه ازداد بعدا واعراضا لاننا لا نجد من حياتنا اليومية أسسا حضارية دافعة ، وإنما نجد مسلمات ، وكهنة يدافعون عن هذه المسلمات ، ويمكنون لها فى عقولنا وأعمالنا الى اليوم ، فنحن ما نزال نكافح للخروج من الكهف المظلم والسراديب العميقة على أضواء شموع باهتة متراقصة الضوء ٠

فأدبنا ما تزال تسيطر عليه نزعة سلوكية باردة كالموت ، بليدة كالجماد ، وما يزال أدب وعظ وإرشاد ، وقوالب لفظية ترن كأجراس كنيسة بطرس فى روما دون أن تخلف أثرا فى النفس ودون أن تكون فى مستوى البطش بالغباوة والركود ، فنحن ذوو نزعة فردية نتخذ من الادب ظهورا لذواتنا ، وسبيلا لفرض زعامتنا فى الرأى ، ولم نتخذ الادب يوما لخدمة القضايا ، أو للابتكار والتجديد والخلق ، ومن هنا كانت أعمالنا الادبية دون ذوات أصحابها فى الشهرة والذيوع ٠ أذكر بهذا الصدد رأيا للكاتب الجزائرى مالك بن نبى ما يزال عالقا بذهنى كلما تأملت أوضاعنا من قريب أو بعيد ، يقول مالك بن نبى ــ وأنا أسوق حديثه بالمعنى ــ : « إن الفرق بيننا وبين غيرنا من أمم الغرب المتحضرة ، أن القيم عندهم هى البارزة الواضحة ، وأن الزعماء والقواد وعظماء الرجال هم سدنة هذه القيم وخدامها ، فالذى يشع هناك ويغمر الحياة إنما هى المبادى والافكار ، اما نحن فلا تكاد تظهر عندنا فكرة حتى يبتلعها شخص ، فيصبح ذلك الشخص شخصية ، وسرعان ما ننسى الفكرة ونقدس الشخصية صاحبة الفكرة ، وبذلك نقتل الافكار والقيم ونعبد الذوات وننفخ فيها حتى تصبح آلهة أو كالآلهة فتحتكر كل شيء حتى الافكار ذاتها » ٠

قد يكون هذا القول قابلا للمناقشة ككل قول محتمل للصدق والكذب ، ولكن الذى يبدو أن بعضا من أدبنا ما يزال تحت سيطرة هذا الواقع ، وما يزال أدبا للمدح والرثاء والتكسب ، ما يزال يعيش فى ظلال ــ الشخصية ــ وينأى عن مناخ الفكرة والمبدإ ، على أن هذا الواقع الذى ما نزال نعيشه لا ينبغى أن يدفع بنا الى اليأس ، فهناك من أدبنا المعاصر أدب يكافح ويجالد ٠

هناك أدب ينحو نحو موضوعية العلم وأهداف الحياة النبيلة ، يريد أن يصنع لنا نفوسا جديدة ، قد نبتت فى أرضها قيم الحضارة الحق ، ويريد أن يكون الشموخ والاستعلاء للافكار على حساب الذوات الفانية ، يريد مثل هذا الادب أن يبنى فى ساحاتنا تماثيل للحرية قبل الاحرار ، وأن يستبدل ضعفنا وهزالنا بقوة العدل والحق ، فيكون فى حياتنا حوار ، ليس فيه صاحب

ـ الرأى ـ الذى لا رأى سواه فيجمد الواقع ويميت القوى الذهنية الخلاقة ، وإنما هناك ـ آراء ـ متكافئة توضع للبحث والدرس والقبول والرفض . فتكون بذلك الحياة بناء مشتركا يعزف فيها الاحياء أنغامهم المختلفة فلا تسمع إلا لحنا واحدا قويا طروبا ، إن هـذا النـوع من الوجـود هو الوجـود الفطرى للانسان ، وبئس الانسان الذى يعيش وجود القطيع ، يسمع ويطيع .

نعم : هناك من أدبنا أدب يكافح هذه الظلمة ، ولكنه ما يـزال كالشعـرة البيضاء فى الثور الاسود على حدتعبير الحديث النبوى ، وإن حاجتنا الى هذا الادب لهى حاجتنا الى الهواء والماء ، ولقد نجد بغيتنـا منـه فى بعض الادب العربى القديم .

ففى الادب العربى القديم قيم إنسانية موضوعية ما أشد حاجتنا أن نقف عندها ،ونحن لا نحكم على هذا الادب من الناحية الفنيـة ، فلذلـك الادب خصائصه الخاصة التى استمدها من طبيعة البيئة الجغرافية والبشرية ، ولكننا اذا ما بحثنا من خلاله على صعيد الانسان كانسان فاننا سوف نجد من ذلك الادب ما نحن فى حاجة اليه اليوم ، وما يمكن أن يحمل قيما معاصرة ، ومن ثمة نكرر القول ، أن الادب ، على هذا المستوى ، ليس فيه قديم وجديد ، وأن مقياس الادب الحركى هو معايشته للانسان وأشواقه أيا كان الزمن الذى قيل فيه ، وأيا كانت البيئة التاريخية والاجتماعية التى حبلت به .

وهناك من الادب الذى يقال اليوم ، وسيقال غدا ما يعد قديما ، إذ لا يمثل عزة فى النفس ، ولا سموا فى الروح ، فمنزلته منزلة البضـاعة التى تبـاع وتستهلك من الذين صنعت لهم ، بضاعة خاضعة للعرض والطلب كما يقول رجال الاقتصاد . وعلى العكس من ذلك ، هناك من الادب الذى قيـل عنـد اليونان والرومان وعند العرب قبل الاسلام وبعده ، ما يزال يحمـل طابـع المعاصرة لنا ويتحدث عن اهتمامات نجد فيها تجاوبا مع نفوسنـا وعقولنـا ونجد فيها ما يدفع بنا الى بناء حياتنا التى نتوق اليها .

فقضية الجديد والقديم فى الادب والفكر قضية يرجع الحكم فيها للحياة . فما حكمت الحياة بموته وجب أن يموت دون اعتبار للزمن الذى أنشىء فيه ، وما قالت الحياة بدوامه واستمراره لانه منها ، وجب أن يحيى « وأما الزبـد فيذهب جفاء ، وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الارض » .

ح. ع.

الى صغيرتي لولينا ..

شعر : محمد الشابي

أتمنى ، ان
ترسبي في
شعوري ،
وتظلي ، كالحلم ... في
لا شعوري
فأنا ، لو لم
توجدي .. كانت الاشجار .. في
إحساسي ، بغير
جذور ..

أتمنى ، ان
ترحلي ، في
أحاسيسي ، قصيدا ..
أراه ... دون
سطور ..
فأحب الاشعار ... ما
كان
عطرا ، يتراءى ، للناس ، دون
زهور ..
ويداك الصغيرتان ... هما
أجمل
إشراقات الشذى ...
والزهور ..

أتمنى ، لو
كان ، وجهك
حظا ... أقرأ .. في
أبعاده ،
مقدوري ..
فلذيذ .. أن
أقرأ العمر ، خيرا ...
وشقاء .. في
شعرك المظفور ..

أتمنى ... وفي
جمالك :
صحو .. وضباب في
قلبي المكسور ..
وجهك الطفل ، داخل ، في
شعوري ،
داخل ... ما في
ثوبك .. من
طيور ...
وأنا ، في
ساعات لقياك ، مشتاق .. أيا
حلوتي ،
لكل الدهور ..

أتمنى ، وبي
من الحزن ، تهويمات ...
وشطآن ... بغير
بحور ...

م. ش.

المثقف والاديب من خلال كتاب

« مواقف »

بقلم : الصادق بن عمران

الاصالة هي العمود الفقري لفلسفة محمد مزالي وهي السلك النى تنتظم فيه مواقفه الفكرية عامة والتي ضمنها منها كتابه « مواقف » بصورة خاصة

والاصالة التونسية ينبغي ان تتجلى في كل مظاهر الحياة السياسية والاجتماعية وحتى الاقتصادية الا ان اصفى مرآة لها هي الحياة الثقافية والادبية

فما هي الثقافة الاصيلة والادب الحق وما هو دور المثقف الحق والاديب الاصيل في المجتمع والحياة كما يتجلى ذلك في « مواقف » الاستاذ محمد مزالي ؟

« الثقافة ــ عند الاستاذ مزالي ــ يجب ان تكون قبل كل شيء قدرة على التلاؤم مع مقتضيات العصر وسيطرة على الواقع وطموحا متواصلا لتغييره وجعله منسجما مع مثلنا العليا ، وهذا يقتضي ، ان نستعيض عن سحر الكلمة بنخوة الفعل وان نتخلص من جاذبية التقليد وسلطان الذاكرة الى روعة الخلق والتزام المستقبل وان نروض انفسنا على تحكيم العقل والاهتداء بانواره في سلوكنا حتى لا تورث الاستفاقة من احلام اليقظة المرارة والانكسار » (ص323)

فالثقافة الاصيلة اذن ليست هي الثقافة المنغلقة على نفسها المجترة لماضيها العاكفة عليه صنما الخائفة عليه من نور شمس العقل واصابع البحث والنقد بل هي الثقافة المعتزة بما في ماضيها من مجد المتعظة بما فيه من ضعف المتفتحة على غيرها من الثقافات شرقيها وغربيها قديمها وحديثها .

ولكن دون أن تتفصى من ذاتيتها أو تخرج من جلدها بدعوى التمسك بالفكر المجرد والانتساب الى الانسان المطلق .

وعلى ذلك « فان الثقافة التونسية ــ كما يقول مزالي ــ يجب ان تستمد من تراثنا العربي الاسلامي وتستوحي تاريخنا الحافل من البربر الى اليوم وتعنى

بمشاكل الواقع الراهن لتحسينه من دون ان تخشى اللقاح بثقافات الامم الاخرى والاخذ عنها والاستزادة منها ٠ » (ص 54)

وهكذا فلا يمكن ان يكون مثقفا حقا من تعلم فاغتر بعلمه أو من بدا ـ نتيجة علمه ـ بوجهين أو من يسمى عدم القدرة على اكتساب القدرة ثباتا على المبدا أو من تنوب الغصة عنده الفعل والنية العمل ٠

بل المثقف الحق هو من آمن بان الثقافة ليست وقفا على طبقة او جيل ومن آمن بان الثقافة لهب والشعب نار فاهتدى وهدى ومن فهم بان الحياة تادية رسالة وبأن الحياة اختيار والتزام والمثقف الحق هو من « اقتحم لجة البحر ـ كما يقول الغزالي ـ وخاض غمراته خوض الجسور لا خوض الجبان الحذور وتوغل في كل مظلمة وتهجم على كل مشكلة واقتحم كل ورطة ٠ »

ذلك هو المثقف الاصيل ـ عند الاستاذ مزالي ـ فهو « جندي واع مستعد او لا يكون »

ودوره يتمثل في ان « يتبنى قضايا مضبوطة ويخدمها قولا وعملا ويتعرض الى جميع العواقب في سبيلها ٠ » (ص 290)

هذا دوره عامة ولكن دوره في الدول المتخلفة او السائرة في طريق النمو اوكد واخطر فواجب الذين ينتسبون الى الثقافة في هذه البلاد « ان ينيروا السبيل أمام الشعب ويساهموا في توعيته وان يوضحوا بالخصوص مفاهيم الديمقراطية ويضبطوا اركانها وشروطها حتى تتحقق كاملة صحيحة سالمة من النقائص والعيوب فيعرف الجميع حقوقهم وواجباتهم ونوفق كلنا الى التأليف بين الحرية والنظام في كنف العدالة »

وواضح جدا ان من اقرب المثقفين الى تأدية هذه الرسالة والقيام بهذا الدور هو الصحافي فهو متفرغ لذلك واتصاله بالشعب اشد ونشر افكاره بينهم أيسر فما هو رأى الاستاذ مزالي في الصحافة وما هو موقفه من الصحافي ؟

ان ما يلاحظ عموما هو صعوبة العمل الصحفي في كل بلاد وفي البلدان المتخلفة خصوصا وذلك لاسباب كثيرة متشابكة بعضها خارجي وبعضها داخلي بعضها يعود الى الظروف التي يعيش فيها الصحفي وبعضها يعود الى « الظروف »

التى تعيش فيه ٠ من الاولى الظروف السياسية والاجتماعية والفكرية للسلط الحاكمة وللمجتمع الذى ينتسب اليه ومنها التبعية المالية للصحف الى بعض المؤسسات أو الاحزاب ومن الثانية (أى الداخلية) ما يعانيه كثير من الصحفيين من عقد النفس وضيق مجال الفكر وانقياد للهوى ٠

لذلك نراهم كثيرا ما ينساقون نحو السهولة اما بان يجاروا التيارات ويصفقوا لها بالفاظ كثيرا ما تفقد ـ للمبالغة فى ترديدها ـ مدلولها الصحيح او ان يتخمروا ويجردوا اقلامهم ليخوضوا معارك او نوبات التهريج والاحتجاجات والهجومات الشخصية والسباب وان يتعمدوا الاثارة والديماغوجية لان بعض الناس يرغبون بطبيعة الحال فى قراءة هذه المقالات ٠ » (ص 79)

تلك هى المزالق التى كثيرا ما يرتد فيها الصحافى فاذا بـه يفعل عكس ما من أجله وجد ويصل الى عكس ما أراد هو نفسه (أحيانا) ان يصل اليه

لـذا يجب معالجة الامر بالتخلص شيئا فشيئا من ضغط الظروف الخارجية وبالعمل على توسيع الافق الداخلى لرجل الصحافة وتنقيته من الشوائب المختلفة حتى يدرك كل شخص سواء صاحب السلطة او الصحافى او القارىء العادى ان الصحافى « عقل يقظ وضمير حى ملاحظ منتقد ومشاهد موقظ للهمم او لا يكون ٠ » (ص 84)

وانه حينئذ وقبل كل شيء « مواطن صالح وانسان شريف له من الثقافة والاخلاق ما يجعله يقوم برسالة واسعة الابعاد نبيلة المقاصد عزيزة المنال وهى خدمة الوطن الذى ينتسب اليه وخدمة الانسانية التى ليس وطنه الا رافدا من روافدها ٠ » (ص 81)

ذلك هو الصحافى ودوره فى المجتمع والحياة وهو أمر متفق عليه عادة وان اختلف بعض الناس فى بعض جزئياته ولكن الذى اختلف الناس فى تعريفه وتحديد دوره من المثقفين وقالوا فيه واطالوا هو الاديب ٠

فمنذ القديم الى اليوم بل الى الغد والناس يختلفون فى تحديدهم للادب وضبطهم لرسالة الاديب فكم من اديب اجبر على ان يكون غير الذى أراد لنفسه ان يكون وكم من اديب جلد او احرقت مؤلفاته او احرق هو وهى او اتهم بتهمة فاذا براسه يتدحرج على النطع وكم من اديب يحشر فى مستشفى الامراض

العقلية او يفر الى « الغـربة الكبرى » فى وطنه او ينتحـر او ينفـى عن وطنه ويحرم من جميع الحقوق المدنية ..

كل ذلك ليس سوى نتيجة لاختلاف النظرة الى كنه الادب وحقيقة الاديب وجوهر رسالته .

فما هو موقف الاستاذ محمد مزالى من هذه القضية ؟
ان نظرة فى الادب القديم خاصة تبين ان الادب كثيرا ما اعتبره القوم تـرفا ولهوا وعملا هامشيا اى صناعة زائفة وكان الادباء عامة « منهم من يكتب رهبـة فادبهم ادب العبيد ومنهم من يكتب رغبة وادبهـم ادب التجـار وصنف ثالث يكتب شعورا بحاجة ملحة وتعبيرا عن تجربة صادقة فادبهم هو الادب الحق .. ادب الاحـرار . » (ص 101)

وان نظرة فى الادب الحديث تبين ان بعض الناس لا يزالون على ما كان عليه الاجداد من اعتقـاد وان البعض الاخـر قد انساق نحو بعض الحجارة البـراقة يتمسح عليها مسبحا بحمد الحضارة الجديدة حضارة « الكبار » حضارة الدول « المتقدمة » شرقا وغربا .

من هذه الحجارة حجرة « الادب الملزم » وهـى شرقية (لا مشرقية) وهـى رمز اولئك الذين يعتبرون « الاديب مجرد اداة او آلة فوتوغرافية او بوقا صدئا يردد الاصداء وبموجب ذلك ظهرت مدارس لتقييـم الادب بحسب خـدمته او عدم خدمته للشعب » .

« وهذه المدارس ـ كما يقول الاستاذ مزالى ـ قد افلست اليوم افلاسا مريعا لا فقط لان الادب فى هذه الاماكن ذوى وتقلص ظله بل لان القوم فى هـــذه البلدان نفسها غيروا مواقفهم واصبحوا اشد الناس انتقادا لما آمنوا به وتفصيا مما كانوا يقدسونه بالامس » (ص 103)

لماذا ذلك ؟ ! لانهم نسوا شيئا هاما لا يمكن ان يستغنى عنـه الاديب وهـو الحـــرية .

« الواقع ان الادب مشروط بحرية الاديب ولا يستطيع الناس تقييده بدعوى تقييمه ولا الحكم له او عليه انطلاقا من افكار جاهزة او احكام مسبقة . »

اما الحجرة البراقة الثانية ولعلها اكثر بريقا من السابقة واكثر انصارا وعبادا فهى حجرة الادب « الثورى » وهى لا شرقية ولا غربية وانما سماوية اصبح فى كل بلاد منها خيط او شعاع يربط بين مجموعة من الفتيان او المتفتين الذين تحركهم الكلمات الرنانة المركزة خواتمها على الحروف الياء والياء والتاء من ديمقراطية وثورية وانتهازية وبرجوازية وبروليتارية وما لف لفها ٠

والثورة عند اصحاب هذه المدرسة هى كما يقول صاحب كتاب « مواقف » موقف يروم تغيير الواقع بتغيير الهياكل الاجتماعية والاقتصادية وذلك بالرجوع الى قيم سامية فى الحياة وأهداف عليا تتصور من العدالة الاجتماعية والحرية والتآلف والتعايش تصورا ما ٠ »

وقد يكون هذا الموقف نبيلا وقد لا يكون وهو فى الحالين ليس من مشمولات الادب وان كان من الممكن ان تكون له علاقة بالاديب فالاديب نفسه « قد يرى من واجبه ان ياخذ البندقية او المطرقة ويضم جهوده الى جهود المناضلين والكادحين لكنه يفعل ذلك بوصفه مواطنا له فى المجتمع حقوق يمارسها وواجبات يضطلع بها لا من حيث هو اديب ٠ » (ص 104)

فمن هو الاديب الحق اذن ؟

يجيب الاستاذ مزالى فيقول « ان الاديب - فى اعتقادى - يتبنى الكون ويتعاطف معه ويتشربه ويتطلع الى ما فيه جمالا وقبحا خيرا وشرا حقا وزيفا عدلا وجورا واقعا وسرابا يقينا ووهما عظمة وحقارة فتدوى به نفسه ثم اذا هو يعبر عن ذلك تعبيرا ذاتيا مصطبغا بروحه وبشعوره ونظرته للحياة ٠ »

ولكن ليس معنى ذلك ان الاديب ملك زمانه لا يسال عما يفعل ولا يلتزم شروطا معينة بل الاديب الحق ينبغى ان تتوفر فيه شروط « واول ما يشترط فيه هو ان يكون صادقا ذاتيا وان يعبر تعبيرا فنيا طريفا موحيا كي يستطيع ان يهزنا هزا ويبعدنا عن واقعنا ويخلصنا من جاذبية منزلتنا الارضية ويحلق بنا فى فضاء خياله ويأخذنا بشذي نفحاته ٠ »

اذن فاول الشروط الصدق فى الرؤية والاستيحاء والتجربة والاسلوب واذا التزم الاديب ذلك فلا يمكن ان يخرج من جلده او يصبح خارج زمانه ومكانه وعند ذلك سيدفع طبيعيا الى توسيع ثقافته وتعميق حساسيته فى فحص الامور بعين ثاقبة وبصيرة ذكية وتقوية قدرته على الغوص فى الواقع

وعلى ممارسته البشر كل ذلك في تماسك مع الماضي والتصاق بالحاضر ورنو للمستقبل وهكذا يجد الاديب نفسه ملتزما دون ان يلزمه احد ويجد نفسه مسؤولا دون ان يكلفه ذلك احد وهكذا يصنع لنفسه من الحرية شعاعا يحدد اتجاهه لا نورا ساطعا يذهب ببصره او نارا مضطرمة تذهب به ، وباحلامه ٠

والاديب المسؤول الملتزم بطبعه هو الاديب الاصيل والاديب الثوري الحق الذي يثور ليبني لا ليخرب وليخاطب العقول ويتحاور مع العواطف لا ليهيج هذه ويطمس ذاك والذي يستطيع عند ذلك ان يتخذ موقفا من دون مواربة وفي غير التواء وفي شجاعة واباء وان يابى ان يعوى مع العاوين او يهتف مع الهاتفين او يصمت مع الصامتين ويستطيع « ان يعبر عن ذلك باسلوب هو حر في اختياره لانه صنو له وشاهد عليه ولكنه الى جانب ذلك يقول ما يقول ويكتب ما يكتب لانه يسعى الى أن يدرك القراء والناس عامة هذا المعنى الذي اكسبه حياته بل نمط الحياة الذي يقترحه ويتحمل تبعاته ويسعى الى ان يدركوا ما بينه وبين أقواله وكتاباته من تآلف وانسجام ووحدة وتماسك ٠ » (ص II)

هذه هي مواقف الاستاذ مزالي من الاديب الحق وتلك هي مواقفه من المثقف الاصيل كما تجلت في هذا الكتاب واننا لنجد لها صدى في بقية ما الف من كتب ومن مقالات ونجدها ممثلة احسن تمثيل في مجلته الفكر في افتتاحياتها وما تنشره من انتاج وفي مغامرة بروزها ورحلتها منذ خمس قرن ٠

الحي الموحل

قصة ، بقلم : محمد الصحبى الحاجى

حبات المطر ترتطم بزجاج النافذة وتتدحرج الى أسفل فى قفزات سريعة حاولت أثناءها أن تتعلق بالجدار الاملس فلم تفلح .

ألصق حسن أنفه بالزجاج فاكتسى من نفسه بطبقة رقيقة بخارية شفافة سرعان ما ذابت وتبخرت وتركت مكانا نديا مسحه حسن بكفه وأعاد اللعبة مرات ومرات . أخذ يتأمل الطريق وقد استحال وحلا تغـرق القـدم فيه الى الركبة ... كيف تستطيع أمى اجتياز هذا الطريق ؟ ماذا بوسعى أن أفعل لاساعدها ؟... واستعرض فى ذهنه بعض المخططات ، لكنه لم يرض عنها ، فألقاها من فكره يجب أن تعتمد والدته على نفسها لان الامر يتكرر تقريبا كامل السنة . وضحك حسن لاحتمال رؤيتهـا غـاطسة حتى الكعبين فى الوحل وذكره ذلك بما كانت تفعله جدته وهى تعجن الزيتون بينما هو يجذب رداءها بشقاوة فتشبعه سبا وشتما وتهديدا .

مر شاب حامل دراجته على ظهره وقد شمـر عن سـاقيه وراح يطلـق الشكاوى ويشتم البلدية بصـوت مرتفـع مبحـوح . أقبلت أمه كانت هى الاخرى تسير حافية القدمين فذهب وفتح لها الباب فدلفت الى المنزل واتجهت الى مدفأة الغاز وأشعلتها ..

ــ ألم يأت والدك ؟

ــ لم يأت بعد ... ربما لن يأتى اليوم .

ــ ربـمـا .

ــ لم يحسن صنعا حين اشترى بيتا فى هذا الحى .

ــ معك حق يا ولدى ... كان أبوك يتوقـع أن تعبـد كـل الطـرق فى المدينة ، سوف لن تدوم هذه الحالة طويلا باذن الله .

ــ هل تعتزمون شراء بيت فى حى آخر ؟

ـ كـلا ٠

ـ هل تعتزم البلدية تعبيد شارعنا ؟

ـ سنجبرها على ذلك ٠

ـ كيف ٠٠٠ لقد كاتبوها عدة مرات ورفعوا لها شكاوى أمضاها كل سكان الحى فلم تسمع ٠

ـ فى هذه المرة ، سننتهج أسلوبا آخر ٠

ـ تطالبون بجرار يمسح الشارع لقد جاء هذا الصباح وحمل كمية كبيرة من الوحل لكن الطريق ازداد سوءا ٠

ـ كلا ليس هذا ان والدك يفكر فى أن يصبح رئيس بلدية فى الانتخابات المقبلـة ٠

ـ ولماذا لم يفعل ذلك من قبل ؟

ـ هل تظن أن هذا أمر سهل يا ولدى ٠

ـ عندما يصبح والدى رئيس بلدية يعبد الطريق فورا وعندئذ لن يخشى سكان حينا نزول المطر ؟

ـ أجل يا ولدى ٠

فتح الباب ودخل الأب ٠ كان رجلا أبيض ذا صلعة ٠ وتأمله ابنه جيدا ثم قال فى نفسه : حقا ان أبى بصلعته وكرشه يصلح أن يكون رئيس بلدية ٠٠٠

ـ صباح الخير يا بابا ٠

ـ صباح الخير يا ولدى ٠٠٠ ألم تذهب الى المدرسة اليوم ٠

ـ معلمنا مريض ٠

ـ حسنا فعل ٠ فى هذا اليوم يستحسن أن يمرض جميع المعلمين ٠

وقالت الأم :

ـ كل الناس يفرحون بالغيث الا نحن فكلما تجمعت الغيـوم فى السمـاء دعونا الله أن تنقشع ٠

فأجابها الأب :

ـ كل هذا بسبب شارعنا اللعين ٠

وعلق الولد :

ــ ولكنك يا أبى ستصبح رئيس بلدية وستأمر بتعبيد الطريق ٠

وعد الأب كلام ابنه فألا حسنا وأجاب :

ــ ان شاء الله هذا يتوقف على رغبة سكان الحى وتأييدهم لى ٠

والتفت لزوجته :

ــ ماذا يقول الناس عنى ٠

ــ كلهم متحمسون لك ٠

ــ لكنهم قلة ٠

ــ نعم بيد أنهم يستطيعون أن يكونوا ذوى نفع كبير لك ٠

ــ ينبغى أن أكسب ثقة الآخرين ٠

ــ أن لديك سمعة طيبة والناس يحبونك ٠

ــ هذا لا يكفى فالحب لا يستطيع أن يصنع رئيس بلدية ٠

ــ ماذا تطلب اذن ؟

ــ شيئا آخر يجب أن أكون رجلا ذا خطر ٠

ــ ماذا تقصد ؟

ــ ان الناس لا يصوتون الا للرجل الخطير ٠

ــ من هو الرجل الخطير فى نظرك ؟

ــ الغنى مثلا ٠

ــ ولكنك غنى ٠

ــ ثمة من هم أثرى منى ٠

ــ أنا واثقة أنك ستفوز عليهم ٠٠٠ فقد يكونون أثرى منك ولكنهم غير محبوبين ٠

ــ لا يهم ذلك فالناس كما قلت لك يصوتون بدوافع أخرى ٠٠٠ كالطمع ٠٠٠ والخوف ٠٠٠ وينسون المحبة ٠

ــ على أية حال لا تفشل ٠ قدم ترشحك ٠

ــ سأفعل ٠

ووقف الأب ونظر من خلال النافذة • كان المطر بغزارة هذه المرة ، وتجمعت برك المياه فى الشارع وهمس الأب سيتعفن الشارع وسيصاب سكان الحى بالمرض ••• شاهد جمعا من الشبان يرمون وسط الطريق بالحجارة العريضة ويقفزون فوقها فقال : إنهم يزرعون الشارع بالحجارة •

وأطل حسن من النافذة وراح يتفرج على ذلك بمتعة وما ان مرت لحظات حتى صار الشارع مزروعا بالصخور وقالت الزوجة وهى تتأمل ذلك :

ـ هذه المرة سيكون الامر سهلا على سأجتاز الطريق على الصخور حسنا فعلـوا •

وبعدما أفطرت انطلقت الى المدرسة ، لم تكن بعيدة وقدرت أنها لن تستطيع أن تقطع المسافة اليها فى أقل من نصف ساعة ، وراح الزوج والابن يتفرجان عليها ، ضاحكين وهمس الولد : « إن أمى رياضية ، ما زالت تستطيع الوثب » لكن ما إن أتم كلامه حتى انزلقت قدمها وغرقت فى الوحل • هرع الزوج وابنه لينجداها وكذلك فعل المارة الآخرون •

وقال رجل : شكرا للمطر ، انها تجعل كل الناس سواسية لا أحد يستطيع استعمال سيارته •

وغمغم رئيس البلدية المقبل :

ـ ما أبشع وجهك •

دخلوا الى البيت وراحت الأم تبدل ثيابها والولد يضحك وعندمـا أقفلت آخر زر من معطفها الآخر تناولت المحفظة وهمت بالخروج فأوقفها الزوج وقال لها وهو يرفع سماعة التلفون لا تذهبى سأخاطب مدير المدرسة وأعلمه بأنك لا تستطيعين الذهاب •

وصاحت الزوجة لا أريد أن أتغيب فانى لا أحتمل تصور تلاميذى راجعين الى منازلهم بينما انا قابعة هنا •

ـ مهما يكن ينبغى أن تفكرى فى نفسك قبل كل شىء ••• ألو ••• ألو السيد المدير • هنا السيد سالم النور ان زوجتى ستتغيب عن الدروس ••• لا انها بصحة جيدة ولكن حالة الطريق سيئة للغاية ••• شكرا •

وعندما وضع السماعة التفت ناحية زوجته فلم يجدها ورآها من الباب وهي تجري مبتعدة عنه وهمس : « لقد ذهبت انها عنيدة في المرة المقبلة سأحتاط للأمر عندما ينزل المطر سأتقدم عنها رخصة طبية ... لن يرفض الطبيب تسليمها الى لاني سأكون عندها رئيس بلدية » .

وتصور نفسه يختال بالشريط الملون على صدره ونظر في المرآة وقال في سره : « انه يناسبني جدا ... ولم لا ؟ ! »

* * *

استطاع السيد سالم النور أن يفوز برئاسة البلدية بعد جهود كبيرة قام بها ومال كبير أنفقه من أجل الدعاية وساعده سكان الحي على تبوء هذا المنصب وجاؤوا كلهم الى البيت وهنؤوه بحرارة .

ولم يثر السيد سالم النور مسألة تعبيد الشارع لحكمة ما غير أنه فكر مليا ووجد حلا سهلا فقال لزوجته :

ـ لقد أصبح لدي أصدقاء كثيرون ، أصدقاء مرموقون يزورونني في المنزل وأنت تعلمين أنه لا يقع في شارع نظيف وقد فكرت في أن ننتقل الى منزل يقع في حي أكثر لياقة . ما رأيك ؟.

ووافقت الزوجة على ذلك .

م. ص. ح.

اعترافات

شعر : على السعيدى

بذاكرتى أهرب خلف هذا الكتاب العتيق
وليس فراغ ،،
وليس ضياع ،،
وليس احتراق بدون حريق

ولكننى
ـ وأنت تغنيننى
ـ كنا اثنين نبكى لوقع حوافر هذا القدر
أردت الهروب
ويا ليتنى عبرت العواصف ...
يا ليتنى
لأعرف سر انتحار الطواحين ..
فى الهدأة
وأعرف أن الحقيقة لفظ خيال ..
يفوه بها الأنبياء
وتبقى كمية دونما كفن
بدنيا المحال
ـ صحيح ..
أنا قد رضعت حليب البداوة
والجـوع
والسفـر ...

ـ صحيـح
تعريت حينا
ولدت بكوخنا فوق سرير العواصف
فوق سرير البكاء
ـ صحيـح ..
وماذا تريدين منى

وقد كنت أنشدت معزوفة للحزانى
وأخرى لكوخى
وثالثة للخيانه
....
عرفتك فى لحظة كنت فيها
غريبا بلا وطن ..
عرفتك والحب ينمو جنينا
باحشاء ذاكرتى
ولكنه مات قبل المخاض
بلا لوعة ..
وأنت تغنيننى ،
ـ كنا اثنين نبكى لوقع حوافر هذا القدر
سألتك إنى كرهت النفاق
فلا تعتبى
فقير أنا
وليس أبى ....
كمن قيل عنه
يبيع المحار بأرض الهنود
رتقت حذائى للمرة العاشره
وسافرت وقتا طويلا بلا قاطره
بلا قاطره
بلا قاطره

ع. س.

المصادر الكبرى لاتجاهات
الادب العربي المعاصر

(2 *)

بقلم محمد الحبيب عباس

سبق ان جلونا اهمية القضية الفلسطينية كاهم مصدر ذاتي للتيارات الادبية العربية المعاصرة ·

اما على الصعيد العربى القيادى ، فاكتفى بالاشارة الى الاتجاهين الاساسيين اللذين ظهرا منذ بداية الخمسينيات فى علاج القضية الفلسطينية :

أ ـ احدهما يعتمد المعطيات المعاشة ، والتحليل الصريح ، وتقدير شتى الملابسات فى وضع الخطة والتماس الحل ، ومواجهة الجماهير العربية بالحقيقة كى تكون على بينة من امرها فى اختيار انجع الطرق لخوض معارك التحرير ، ومواجهة احتمالات المستقبل ، واقناع الفلسطينيين واخوانهم فى العروبة باولوية ابناء الارض المحتلة فى النهوض باعباء النضال التحريرى ، مقابل الدعم الادبى والمادى والجغرافى الذى ينبغى ان لا تتردد اية دولة عربية فى بذله مهما كانت التبعات ، وكيفما تنوعت المضايقات والزواجر ···

ب ـ والآخر يقوم على المناورة السياسية ، واطلاق الشعارات المتطرفة ، والمغالاة فى لغة التحدى ، وضرب الوعود المطمئنة ، للعرب والفلسطينيين على حد السواء ، بتحرير فلسطين ، واعادة ابنائها اليها ، واستسهال تحقيق الامرين معا مع المراوحة بين الهاب العواطف عند مخاطبة الجماهير العربية ، والتردد فى مواجهة الراى العام الدولى والعالمى بين التطرف والاعتدال بحسب الظروف ··

ولم يكن سوى الزعيم الحبيب بورقيبة رائدا للاتجاه الاول الذى كان مفاجأة جريئة على الصعيدين العربى والعالمى :

(*) راجع « الفكر » العدد 7 / السنة 19 ·

صارح الراى العام العربى برايه فى عـلاج القضية الفلسطينية ، بعـدما صارح القادة العرب بتصوره لابعاد المشكل ، ولم يجامل الشعور القومى فى تحليل الوضع العـربى والدولى اللـذين يكتنفان القضيـة ، كما لـم يتهيب المناورين والمشاغبين والمستغلين فى اعلان عقم الطرق التى تعالج بها ٠

وجذب الراى العام الدولى بطريقة عرضه لحقيقة الـوجود الاسرائيلى فـى فلسطين التى اندثرت فى مضاعفات الاشفاق على الاقلية اليهودية ، والتكفير عما تعرضت له من آلام الاضطهاد العنصرى ٠

فلاول مرة يربط مفكر معاصر ، وزعيم سياسى الحركة الصهيونية بالحركات الاستعمارية فى ابشع صورها ، ويعنى بابراز المظلمة الصارخة التى ابتلى بها شعب كامل فى ارضه ووجوده تحت ستار رفع مظالم سابقة جرت فى اراض اخرى وعلى ايد لا علاقة لابناء الارض المحتلة بها ابرازا يعتمد المفاهيم الدولية الجديدة ، وموازين العصر فى تحديد علاقات الشعوب ، بلغة نافذة ، ومنطق مؤثر ، واقيسة مقنعة مفحمة ٠٠٠

وقد افاض الزعيم التونسى فى تحليل نظريته التى ذعـر بها الصهـاينة انفسهم ذعرا شديدا ٠

وفيما يلى نقتطف بعض المقاطع التى تعطى فكرة واضحة عـن الاسلـوب البورقيبى فى تناول القضية الفلسطينية :

« ٠٠٠ ارى انه لا يمكن حل المشاكل بطرق ملتوية ٠ ولا يمكن حل هذا المشكل الا بمجابهة الامر بصورة صريحة فالامر يتعلق فى الواقع بمشكلـة استعمارية ، وباستعمار من نوع جديد ، والقضية ليست قضية هيمنة شعب على شعب آخر ، بل انها فى هذه الحالة الخاصة قضية احلال شعب مكان شعب آخر ٠٠٠٠ واستندت اسرائيل على حق الغزو ، معلنة : انى هنا ، وسابقـى حيث انا لانى اقوى من الجميع ، على ان فـرنسا استنـدت ايضا فيما يخص الجزائر على ذلك الحق منذ 130 سنة ، وانتم تعلمون الى اين ادى بهـا ذلك ٠

وفيما يخص فلسطين فاننا نجابه نفس المشكلة ٠ ان العرب فرضت عليهم ظروف لا تختلف عن التى كان فيها اليهود اثناء الحـرب العالمية الاخيـرة ، فقد ارسلوا ايضا الى المعسكرات خارج وطنهم ٠٠ وما لم يقع فض المشكل الاساسى

فان شبح الحرب سيبقى مخيما ، وبعد اسبوع ، أو بعد شهر ، أو سنة ، أو عشرين سنة ، لا بد ان يعاد النظر فى وجود اسرائيل مثلما كان الامر بالنسبة لوجود فرنسا بالجزائر ٠٠٠ » (1)

« ٠٠٠ اننا ننظر الى اسرائيل باعتبارها دولة فرضت وجودها بالقوة وسمحت لنفسها بان تحل محل شعب لم يحمل فى الماضى مشاعر العداء لليهود متذرعة بانه كانت توجد دولة يهودية فى هذه الاصقاع منذ الفين وخمسمائة سنة ، لذلك نعتبر ان دولة اسرائيل لا تزيد عن ان تكون صيغة من صيغ الاستعمار ٠ وقد كنا اول من تأثر لآلام الشعب اليهودى فى اوروبا الوسطى والشرقية ، ولكن هذه الآلام لا يمكن ان تكون مبررا لاراحة اوروبا من الفئات اليهودية التى نجت من المغامرات الهتليرية ، ولاقرارها بالقوة فى البلاد الوحيدة التى لم تضطهد اليهود البتة ، فنحن نعتبر ان هذه مظلمة ، وانه كان يتعين ايجاد حل اقل ظلما يكفل وضع حد لآلام شعب اسرائيل وبؤسه وتقتيله ، على ان يكون مغايرا للحل الذى اختير وتمثل فى فرض دولة اسرائيل فى منطقة يعيش فيها سكانها منذ الفى سنة بحجة ان الحياة اصبحت مستحيلة بالنسبة لليهود فى المانيا وفى النمسا ، هناك اذن مظلمة نتألم منها تماما مثلما نتألم لو اختير عوضا عن فلسطين قطر مثل اللكسمبورغ ، او جزيرة ماجوركا ، او مدغشقر ، ليطرد منه سكانه ، ويحل محلهم سكان آخرون فهناك كثير من الاصقاع التى هى فى حاجة الى المهاجرين لاحيائها ، وكان فى الامكان ان يوجد حل آخر يراعى الرغبة الشرعية فى توفير امن اليهود ، وبالطبع يكون مراعيا ايضا لحق السكان العرب فى ان تكون لهم الحكومة التى يرتضونها ، فمن بين السكان بفلسطين طائفة من العرب اليهود ، والعرب المسيحيين ٠٠٠ » (2)

---

(1) من كلام الرئيس بورقيبة فى الندوة الصحفية التى عقدها بنيويورك يوم 13 ماى سنة 1961 ، من كتاب « تونس وقضية فلسطين » طبع كتابة الدولة للاخبار والارشاد فى تونس 1966 ، صفحة (31)

(2) من كلام الرئيس بورقيبة فى ندوته الصحفية فى مدينة كوبنهاغ يوم 6 جوان سنة 1963 ، من كتاب « تونس وقضية فلسطين » طبع كتابة الدولة للاخبار والارشاد فى تونس سنة 1966 ، صحيفة (35)

« ٠٠٠ ولئن كان الحماس ضرورة من ضرورات الكفاح لدفعه والابقاء على جذوته، فان التضحية والاستشهاد هما اللذان يضمنان النتيجة المرجوة، والفوز العظيم ٠ انكم انتم اصحاب الحق ، فعليكم ان تكونوا الطليعة فى مقاومة الغاصب هنا على حدود الوطن السليب ٠٠٠ ومع روح التضحية والحماس لابد من قيادة حكيمة تجتمع فيها خصال جمة ، من فكر ثاقب ، وتخطيط بعيد المرمى ، وتبصر بالاحداث ، ودراسة لنفسية العدو ، ومراعاة لتفاوت القوى بيننا وبين الخصم ، واعتبار لامكانياتنا الحقيقية مع ضبطها وتقديرها باكثر ما يمكن من التحرى والموضوعية حتى لا يؤول بنا الامر الى مغامرة ثانية تكون نكبة اخرى تعود بنا اشواطا الى الوراء ،، فاذا اتضح لنا اننا لا نستطيع قهر العدو ، والالقاء به فى البحر وجب ان ننتهج الى جانب الكفاح المسلح طرقا اخرى تعتمد الحكمة والدهاء بما فى ذلك من كر وفر ، وترغيب وترهيب ٠٠٠ وليس مطلوبا من المواطن العربى الا ان يتخذ الهدف النهائى قبلة انظاره ، وان يتحمس له ٠ اما الزعيم المسؤول عن نجاح المعركة فعليه التثبت فى الطريق ، واختيار المسالك بما فيها من منعرجات قد يضطر لسلوكها اجتنابا للعقبات ، وتفصيا من العراقيل ولو طال به السير ٠٠٠ » (3)

« ٠٠٠ ان اسرائيل فى نظرنا ليست الا ظاهرة من ظواهر الاستعمار التوطينى ، فكل مستعمرة لها وضعها الخاص والميزة الاسرائيلية متغلغلة فى النفوس ، سيما وهى تثير بعض الحيرة لدى عدد من اعداء الاستعمار الذين لا يتطرق الشك الى مواقفهم ٠٠٠ » (4)

اما الاتجاه الثانى فى علاج القضية الفلسطينية فقد تنازعه عدد من قادة الحركات السياسية فى المشرق العربى ــ قوميين عرب ، وقوميين سوريين ، وبعثيين ، وشيوعيين ٠٠٠

---

(3) من خطاب الرئيس بورقيبة فى اللاجئين الفلسطينيين باريحا يوم 3 مارس سنة 1965 ، المرجع السابق ، صحيفة (65)

(4) من حديث الرئيس بورقيبة لرئيس تحرير « نوفل اوبسرفاتور » الفرنسية Le Nouvel Observateur يوم 15 افريل 1965 ، المرجع السابق ، صحيفة (105)

وقد ظهر عليهم كافة الرئيس المصرى جمال عبد الناصر الذى استطاع ان يحرك النخوة العربية ، وينعش الآمال القومية بتحديات صريحة لاسرائيل والدول الكبرى التى تسندها ، ومهاجمة ما كان يسميه بالرجعية واذناب الاستعمار .

ولطالما اعلن تصميم بلاده على خوض المعركة لتحرير فلسطين ، واعادة شعبها اليها ، وفيما يلى نماذج من تصريحاته :

« ... اقول لاسرائيل ، ومن يهددون باسمها ، لقد كانت اسرائيل تعتقد انها هزمت الجيش المصرى فى سنة 1948 ، فهى تهددنا الآن معتمدة على هذه الخرافة — اليوم اقولها — ان الجيش المصرى لن يختلف عن الجيش قبل ذلك . ان الاساليب التى ساعدت على هزيمتنا فى الماضى قد اختفت ، ولن تعود ابدا ... اننا اليوم اذا دخلنا المعركة نستطيع تعويض ما فات ... واننا لم نهزم مطلقا فى فلسطين سنة 1948 ، وانى كنت فردا فى هذا الجيش من اول يوم فى المعركة حتى آخر يوم ، فرايت بعينى كيف كان اليهود ينسحبون منهزمين ... » (5)

« ... واليوم ونحن نعرف انفسنا لن ترهبنا اسرائيل ، ولن يرهبنا من يؤيدون اسرائيل ،، ومن يساعدون اسرائيل لاننا نؤمن بانفسنا ، ونعرف قوتنا فى هذا الايمان . وكما هزمنا الدول الكبرى واسرائيل فى الماضى فاننا بعون الله نستطيع ان نهزم اسرائيل ومن يعاون اسرائيل فى المستقبل ... » (6)

« ... اننا لن نتجاهل حقوق شعب فلسطين ... لان هذه الحقوق هى حقوق امتنا ... كما لا ننسى او نتجاهل اطماع اسرائيل فى بلادنا ، ولن

---

(5) من خطاب الرئيس عبد الناصر فى الكلية الحربية يوم 3 مارس 1955 من كتاب « فلسطين ، من أقوال الرئيس جمال عبد الناصر » طبع مصلحة الاستعلامات فى القاهرة ، صحيفة (13)

(6) من خطاب الرئيس عبد الناصر بمناسبة مرور 50 سنة على اجلاء الانقليز من رشيد القاه يوم 28 جويلية — يوليو — 1959 ، المرجع السابق صحيفة (43)

ننسى او نتجاهل اطماع الاستعمار ٠ ان الشعب العربى مؤمن بان القوة هى السبيل للوقوف فى وجه اطماع اسرائيل ، والقوة هى السبيل فى الحصول على حقوق شعب فلسطين ٠٠٠ » (7)

« ٠٠٠٠ ان عبء الدفاع عن قضية فلسطين ضد اطماع اسرائيل ، وتهديد اسرائيل ، ومن هم وراء اسرائيل ، وفى نفس الوقت المحافظة على حقوق شعب فلسطين ، واستعادة حقوق شعب فلسطين يقع على عاتق الجمهورية العربية المتحدة ٠٠٠ » (8)

« ٠٠٠ يقولون اليوم ان اسرائيل تصنع قنبلة ذرية ٠٠٠ فاذا كانت اسرائيل تستطيع ان تصنع قنبلة ذرية ٠٠ فاننا نستطيع ان نصنع قنبلة ذرية ٠٠٠ اذا تاكدنا من ان اسرائيل تصنع قنبلة ذرية ، فيكون معنى هذا بداية الحرب بيننا وبين اسرائيل ٠ اننا لن نمكن اسرائيل من العمل على انتاج قنبلة ذرية ، لابد ان نهاجم قاعدة العدوان ولو جندنا اربعة مليون حتى نقضى على قاعدة العدوان ٠٠٠ » (9)

« ٠٠٠ فحقوق شعب فلسطين تتطلب العمل الدائم المتواصل ، والاتحاد الكامل والاستعداد ، وعليكم ان تتصلوا بالفلسطينيين فى كل بلد للعمل من اجل قضيتكم واولادكم ، ويجب ان تقضوا على الخلافات بينكم لا من اجل جمال عبد الناصر ، وانما من اجل فلسطين ، ومن يستخدم هذه القضية من اجل موضوع شخصى يكون قد خرج على المبادىء الاخلاقية ، وخرج عن الاهداف ، لان قضية فلسطين لا يمكن ان تستخدم من اجل اهداف سياسية او اهداف شخصية ،، وقد قلت ان هذه القضية هى اصعب قضية فى العالم ٠٠٠ ومن يقول انه وضع خططا لحلها انما يخدعكم ، فامامنا قضية معقدة ، ويجب ان

---

(7) من خطاب الرئيس عبد الناصر فى دمشق يوم 21 فيفرى 1960 ، المرجع السابق ، صحيفة (57)

(8) من خطاب الرئيس عبد الناصر فى معسكرات قطنة يوم 7 مارس 1960 المرجع قبله صحيفة (66)

(9) من خطاب الرئيس عبد الناصر فى عيد النصر الرابع يوم 23 ديسمبر 1960 المرجع قبله ، صحيفة (84)

نستعد لها بكل القوى المعنوية والمادية . القوى المعنوية اساسها الاخلاق والوحدة ،وحدة الكلمة ، ووحدة الصف . والقوى المادية ان نعمل كل ما يمكن عمله حتى لانصاب كما اصبنا فى عام 1948 ... » (10)

« ... النهارده الوضع يختلف عندنا هنا ... احنا اصحاب الحق فى بلدنا ، احنا ارادتنا هى اللى تنفذ ،،، نستطيع ان احنا نسلح انفسنا زى ما أحنا عايزين ، نستطيع ان احنا نبنى المصانع ... نستطيع ان نبنى فى بلدنا القوى الذاتية التى تمكنا من ان نقضى على العدوان الصهيونى ... فى سنة 48 كان الوضع يختلف ... » (11)

« ... اذا كانت اسرائيل بتقول انها لن تسمح لشعب فلسطين ان يعود احنا بنقول انه لابد لشعب فلسطين ان يعود الى بلاده ، ويستعيد حقوقه كاملة غير منقوصة ، اذن احتمالات المستقبل حرب مع اسرائيل . واحنا اللى نفرض وقتها ، واحنا اللى نفرض مكانها . يجب ان نكون قادرين على ردع اسرائيل حتى يستعيد شعب فلسطين حقوقه ، ولكن لا نكرر مأساة سنة 48 . اذن يجب ان نقوى فى جميع المجالات الاقتصادية ، وفى جميع المجالات العسكرية ده سبيلنا الى المستقبل ... » (12)

فى هذه المقتبسات غنى عن أى تعليق ، طالما تكررت مأساة 1948 بشكل افضح ، ونتائج ازرى بكرامة العرب جميعا .

والانكى من ذلك ان لغة ما بعد انكسارنا فى مغامرة جوان 1967 لم تتغير فى جوهرها عنها فيما قبل الا بفارق وحيد فرضه الواقع المحزن هو اختفاء عبارات التهديد والوعيد ، والفاظ التحدى والاستفزاز ..

---

(10) من خطاب الرئيس عبد الناصر فى اعضاء المجلس التشريعى بغزة يوم 22 جوان ـ يونيو ـ 1962 المرجع قبله ، صحيفة (100) و(101)

(11) من خطاب الرئيس عبد الناصر فى عيد النصر يوم 23 ديسمبر 1962 ، المرجع السابق ، صحيفة (103)

(12) من خطاب الرئيس عبد الناصر فى عيد الوحدة يوم 22 فيفرى 1964 المرجع السابق ، صحيفة (121)

اما تطويق الفلسطينيين ، وشل حركة الفداء ، وقمعهم عن ممارسة النضال الثورى ، وتصفية قواعدهم فتلك شواغل اساسية لدى بعض قادتنا لاضير من الالتقاء فيها مـع دولة العدوان على صعيـد واحـد (13) فوا أسفاه ! ويـا خجلتـاه !

ان أهمية القضية الفلسطينية ، وعلاقتها بمصير الوجود العربى ، وادبنا جزء من هذا الوجود ، يفرضان الالحاح على استجلاء ابعاد هذا المصدر الملابس لادبنا حاضرا وآتيا ، بل لتاريخنا الراهن • وغدنا المقبل • بل ليس من الاخلاص الوطنى ، ولا من الوعى القومى اضاعة الفرصة على الادباء الشبان دون اطلاعهم على حقيقة الموقف التونسى من القضية الفلسطينية ، وهم يتطارحون الآراء فى الربوع التونسية ، بخصوص موضوعين اساسيين فى اشغال المؤتمر هما :

- اثر الاتجاهات الادبية العربية المعاصرة فى خدمة المستقبل العربى

- الادب العـربى والصراع ضـد الصهيونية والامبريالية العالمية •

---

(13) حوادث اوت - آب - وسبتمبر - ايلول - سنة 1970 التى شنت على الفلسطينيين بوحشية اشبه بوحشية الجيش الاسرائيلى وافظع

همسة في سمع الزمان

بقلم : فتاة القيروان

أحسست بشيء ما يتحرك في داخلي ٠٠ يشعرني بالاختناق ٠٠ بالحاجة الى الهواء ٠٠ ويدفعني لاخذ القلم علني أستطيع أن أنسخ تلك الصورة المرسومة لك على صفحة وجداني ٠٠ فاستريح ويخف حملي ٠٠ وأتحسس وجودي بعد أن تلاشى في وجودك ٠٠ ولدت يوم شددتني اليك ٠٠ يومها أحسست بجسدك يجهز على جسدي في ارتعاشة اليد التي تحاول أن توثق رباطا ٠٠

أحسست حينها بحرارتك الرجولية تسري في كياني اللاهث ٠٠ تسري في عروقي العطشى ٠

٠٠ وما ذنبي أنا إن خلقت مكتملة الانوثة ٠٠٠ ؟ ؟

وهكذا في لحظة أخرجتني من عتمتي ٠٠ من داموس الانتظار والتمني ٠٠ هكذا اقتلعتني من حدود العالم المرئي ٠٠ لتعبر بي السحاب ٠٠ لنواكب معا انسياب الاحلام بشوق جارف ٠٠ بظما ضائع في صحراء مقفرة يبحث له عن مرفا بين أمواج عاتية ثائرة ٠٠ من عفر ، من ماء ، من ضباب ٠٠٠ لست أدري ٠٠٠ أنا أنثى ٠٠

بعثت في نفسي يا حبي دفءا أذاب جليد أنفاسي وقحط أيامي ٠٠ فعصفت بالعواصف التي كانت تقتلع من ذاتي الامل والشوق ٠٠

جئت يا طفلي المدلل فحفزتني للسير ٠٠ سرت دون يأس الى أرض قصية لم تطأها سنابك البشر ولم تخدش خدها أظافر سفاكة ٠٠ هناك حيث لا وجود ليد القدر العابثة ٠٠٠

جئت ··· فأخذت تبنى لك من حبى قصرا منيعا لتبقى ·· دائما ·· داخل أرجاء قلبى المشتاق ·· ودخلت ·· دخلت دون استئذان تلك الابنية الشاهقة التى تمتد على الجانب الآخر من أفكارى ··· دخلت ففتحت لك نافذة عريضة تطل على فضاء واسع يشمل كل شيء جميل ·· نافذة ، وعاء ، وأفقا وسماء ·· فاسترحت ·· وسعدت فى جزر الحلم الذى يمتد فى أعماقى ·· تلك الجزر الحبلى بعواطفى ··· الصاخبة ··· وانتصبت الاها فيها ··· وكنت المعبد والقربان فما أسعدنى ·· أنا أنثى ···

قلت فى نفسى سأكون هذه المرة أكثر شجاعة ··· سأتحدى القدر حتى لا يبتلع أحلامى ·· وتبعثر يده المجنونة حقائقى ·· فتتكسر نظراتى على بريق باهت لشظايا صامتة قدت من صخر أمانى ·· وتنتهى رحلتى القصيرة فى لجج الحلم ··· وأبحر فى سفينة اللانهاية ·· أواصل المسيرة وحدى ·· الى ·· الى جزر الواقع ·· الواق ·· واق ···

....

الشمس على جبينى

شعر : سوف عبيد

تقطب الشمس على جبينى
تمركزها بين عينى
حفرها جمجمتى .. تحفرها تحفرها تصقلها ...
مرآة جبينى
تعكس العالم وتنوب ...
يا ذوبان العالم على جبينى !

●

نشوة الحرارة على جبينى ..
....
اعشوشبى
يا طرقات أمامى اعشوشبى
يا صخورا فى أخاديد جبينى أنبتى
أسقيك من دمى ...
يا شمس
حبة قمح أو شعير ... ازرعينى
أو صابة زيتون
فى واد غير ذى زرع !

●

الصيف والشمس ... والجفاف ...
عميقة عميقة الأشعة تحفر جبينى بئرا
إلى قـرارى ..
....
يعشوشب جبينى ..
يا خضرة الشمس على جبينى
يا ... جفاف إفريقيا وآسيا
أنا غاطس فى عرقى ...
....

س. ع.

بين الامتاع والمؤانسة
وحكاية أبى القاسم البغدادى

بقلم : فتحى أودير

منَ أعلام النثر الفنى فى القرن الرابع الهجرى أبو حيان التوحيدى صاحب الامتاع والمؤانسة (١) ومن الكتاب المغمورين فى ذلك القرن أبو المطهر الأزدى صاحب حكاية أبى القاسم البغدادى (٢) .

---

(١) ان أبا حيان ـ وقد تم بعثه بفضل الدراسات المعاصرة ـ صار يعتبر من أبرز كتاب النثر العربى على الاطلاق .
أما كتابه الامتاع والمؤانسة فهو من أحسن كتبه تمثيلا لاسلوبه فى الكتابة ، وابرازا لمزاجه وثقافته ، وتصويرا لحياة عصره .

(٢) أنظر عن هذا المؤلف المغمور وأثره الوحيد :
أ) . مقدمة المستشرق آدم متز A. Metz للحكاية ، باللغة الالمانية .
ب) . الفصل الخاص بالحكاية فى آخر الجزء الاول من كتاب زكى مبارك : النثر الفنى فى القرن الرابع .
ج) . مقال المستشرق غابريلى F. Gabrielli باللغة الايطالية فى RSO مجلد 20 جزء ١ ، ص 33 ـ 45 ، رومة 1942 .
د) .
R. Blachère et P. Masnou : Maqàmàt P 12, 13. Paris 1957.

وحكايـة أبى القاسم البغدادى نموذج لفن أدبى طريف من فنون النثر العربى ، يقترب من المقامة ولكنه ليس مقامة ، يصور فيها أبو المطهر ـ من خلال مغامرات بطله أبى القاسم ـ مظاهر من الحياة الاجتماعية فى كل من بغداد واصفهان . وهى عبارة عن مجلس مجون منعقد فى اصفهان (لا فى بغداد كما ذهب الى ذلك بلاشير ومسنو) يتصدره أبو القاسم ، الشيخ الماجن والبغدادى المتعصب لبغداد وأهلها

واذا كنا لا نملك دليلا صريحا على وجود علاقة ما بين هذين الكاتبين ، فقد أصبح بين أيدينا دليل على وجود علاقة بين الكتابين • ذلك أنى وقعت أخيرا على عدة صفحات مشتركة بين كل من الامتاع والمؤانسة وحكاية أبى القاسم البغدادى ، وعسى أن يكون لبحث هذه القضية بعض النتائج المعتبرة •

الصفحات المشتركة (3)

موضوع هذه الصفحات هو تصوير الحياة الغنائية فى بغداد فى منتصف القرن الرابع من خلال تسجيل عدة حالات من الطرب اشتهرت عن أصحابها حتى غدت حالات نموذجية تضرب بها الامثال وتدور حولها الاحاديث ، مع اشارات عديدة عن المغنين والقيان ونماذج من الاصوات الشائعة فى تلك الفترة •

أما أبو حيان فقد جعل هذه الصفحات فى مطلع الجزء الثالث من امتاعه (وان وردت فى الطبعة فى آخر الجزء الثانى) ولا شك أنه أرادها استطرادا ظريفا

وحياتها وفنها ضد اصفهان •

ولعل أهم خصائص هذه الحكاية هى نزعتها الواقعية الشعبية من جهة ، وصبغة المجون الغالبة عليها من جهة أخرى ؛ ونجد اشارات الى ذلك فى ما تقدم من المراجع • ثم هناك خاصية ثالثة انتبه اليها غابريلى وهى هذه المناظرة الطويلة بين بغداد واصفهان Gabrielli p. 36

ان هذه الصبغة الملحمية المتمثلة فى تحمس أبى القاسم واندفاعه فى تعصبه لبغداد كما يجعلنا نستشعر وجود تيارات ثقافية واجتماعية ـ ولا شك أن التيارات السياسية الانفصالية التى تعددت فى تلك الفترة قد عززتها تعزيزا قويا ـ تحاول الانقاص من قيمة بغداد لفائدة الأقاليم • وبذلك تكون حكاية أبى القاسم قد قدمت لنا نموذجا طريفا لردود الفعل التى ظهرت ازاء هذا الوضع •

وانظر عن قضية الشعوبية فى الحياة الفكرية فى القرن الرابع وموقف أبى حيان منها الليلة السادسة من الامتاع •

(3) الامتاع والمؤانسة • ط أحمد أمين وأحمد الزين ج II ص 165 ـ 183 • حكاية أبى القاسم البغدادى • ط آدم متز هيد لبرج 1902 ص 78 ـ 87

من باب ترويح النفس ومزج الجد بالهزل ، فقد توسطت هذه الصفحات عنده فقرتين دعائيتين توجه بهما الى أبى الوفاء المهندس ولاجله ألف أبو حيان الامتاع كما نعرف ٠

وقد تخلص أبو حيان الى هذا الاستطراد الطويل بهذه الصورة :

« أيها الشيخ ، وصل الله قولك بالصواب وفعلك بالتوفيق ٠٠٠ وجعل تلذذك باصطناع المعروف ٠٠٠ حتى تجد طعم الثناء ، وتطرب عليه طرب النشوان على بديع الغناء **لا طرب البرداني على غناء علوة** جارية ابن علوية في درب السلق اذا رفعت عقيرتها فغنت بأبيات السروى (4) ٠٠٠ **ولا طرب ابن فهم الصوفى على غناء** نهاية جارية ابن المغنى اذا اندفعت بشدوها ٠٠٠ (5) »

ثم يمضى على هذا المنوال ، معددا الأطراب ، مكررا فى كل حالة صيغة النفى هذه بحيث يصح أن نعد هذه العبارة « لا طرب ٠٠٠ على ٠٠٠ » عاملا مشتركا لكامل القطعة باستثناء الفقرة الأخيرة التى نجد فيها احصاء لاهل الفن فى الكرخ من قيان ومغنين وهـواة ٠

أما أبو المطهر فقد أورد هذه الصفحات فى سياق افتخار بطله أبى القاسم بمغنيات بغداد وظرفهن فها هو يخاطب الاصفهانيين بقوله : (6) « ليت شعرى مع هذه الاحوال كيف كنتم تكونون لو عاشرتم ظراف بغداد وملوكها وسمعتم أغانى جواريهم المحسنات اللاتى يختلسن العقول ويخبلن القلوب ويسعرن الصدور ويعجلن بعشاقهن الى القبور (7) **حتى ترى قهوة** جارية ابن الرصافى تغنى ٠٠٠ **او ترى صلفة جارية** أبى عابد الكرخى (8) ٠٠٠ **او شاهدت طرب ابن الحريرى الشاهد** على غناء بنت حسنون ٠٠٠ » ويمضى هو الآخر على هذا المنوال حتى ينتهى مثل التوحيدى الى تلك الفقرة الاحصائية ؛ ولكنه يضيف ـ زيادة عن أبى حيان ـ جملة أخيرة جعلها كالخاتمة لهذه الصفحات ، اذ لخص

(4) الامتاع II ، 165
(5) الامتاع II ، 166
(6) الحكاية ص 77 ، 78 ٠
(7) نجد هذه الجملة فى وصف الجوارى المحسنات فى الامتاع II ، 182
(8) لعلها حلية جارية أبى عائذ الكرخى ، الامتاع II ، 176 ٠

فيها رآيه فى حياة البغداديين : « هذا يا سيدنا دأبهم ، وهذه آدابهم ، وصف يعجبك ، وقصف يطربك ، ومعان تروقك ، وأغان تشوقك ، وأحوال توضح لك أنهم والله فى جنان النعيم ومن سواهم فى سواء الجحيم • » (9)

والحق أن هذه الصفحات ـ وان كانت هى هى فى كل من الامتاع والحكاية ـ قد لا تتفق أحيانا اتفاقا تاما فى النصين اذ نجد اختلافات فى بعض الالفاظ والعبارات أو حتى فى أسماء الاعلام كما أن هناك اختلافا فى السياق ، **فسلسلة الاطراب فى الامتاع لا تتقابل مع أختها فى الحكاية حلقة حلقة** ، فخبر « طرب البرداني على غناء علوة جارية ابن علوية » مثلا هو الحلقة الاولى فى سلسلة الامتاع بينما يمثل الحلقة الثانية عشرة فى سلسلة الحكاية وهكذا • وأحيانا تضطرب الاسماء فتترك أمكنتها التى تحتلها فى أحد النصين لتحتل أمكنة أخرى فى النص الثانى • ولا شك أن للنساخ يدا فى اشاعة هذه الفوضى كما أن الطبعة الرديئة التى حظيت بها الحكاية لا تشجعنا على الاطمئنان الى روايتها• **ولذلك فنحن أقوى ثقة بنص التوحيدى** • أضف الى ذلك أن أبا حيان قد توجه بهذه القطعة الى أبى الوفاء المهندس وهو آنذاك مقيم فى بغداد وربما كانت له صلة ما ببعض الشخصيات المذكورة ، كما أن أبا الوفاء من المهتمين بالموسيقى فهو مؤلف « مختصر فى فن الايقاع » (10) وربما علم التوحيدى ميله الى الموسيقى واهتمامه بالحياة الغنائية فقصد الى هذا الاستطراد الغنائى قصدا ؛ ولا شك أنه لكل هذه الاسباب سيسعى الى التثبت ما استطاع • ولنا على كل ذلك بعض القرائن ، منها :

★ يقول التوحيدى بعد أن ذكر طرب أبى عبد الله البصرى المتكلم « بسبب هذا ونظائره ، عابه الواسطى ، وقدح فى دينه ، وألصق به الريبة ، واستحل فى عرضه الغيبة ، **ولقبه بالمنفر عن المذهب** وقاطع الطريق على المسترشد • » (11)

---

(9) الحكاية ، 87 ، 88 •

(10) هنرى جورج فارمر = مصادر الموسيقى العربية • ترجمة حسين نصار ص 70 •
هنرى جورج فارمر = تاريخ الموسيقى العربية • ترجمة حسين نصار ص 255 •

(11) الامتاع II ، 175

وكان سبق له أن قال فى الجزء الاول معرفا بأبى عبد الله الجعل وهو صاحبنا هذا : « أما يقينه فكان ضعيفا ... ولهذا رغب عنه الواسطى ـ وكان أخا ورع ودين ـ وقال : **هذا منفر عن الدين والمذهب** ودافع للناس عن القول بالحق ... **وكان يجهر بهذا وأشباهه** . » (12)

أما أبو المطهر الازدى فقد أورد انتقاد الواسطى بحذافيره عند حديثه عن طرب ابن الوراق النحوى ! (13)

★★ يقول التوحيدى فى نهاية هذه القطعة وقبل الفقرة الاحصائية الاخيرة :

« **عهدى بهذا الحديث سنة ستين وثلاثمائة** » (14)

بينما نجد فى حكاية الأزدى : « لعهدى بهذا الحديث سنة ست وثلاثمائة (15) » فأى القولين نرجح ؟

ان قليلا من التأمل يؤدى بنا حتما الى تصويب نص الامتاع . ففضلا عن أن تاريخ 360 هـ يوافق خطوط حياة أبى حيان فانه يوافق كذلك خطوط حياة الاشخاص المذكورين فى هذه الصفحات ، أما اذا أخذنا بتاريخ 306 هـ فسنجد أن بعض هؤلاء الاشخاص لم يولدوا بعد فى تلك الفترة فضلا عن أن يكونوا من أهل الطرب . فمن الجلى أنه قد وقع خطأ من الناسخ ؛ ونحن نعجب كيف قبل زكى مبارك هذا التاريخ الوارد فى حكاية أبى القاسم دون تثبت مما جعله يبنى عليه آراء خاطئة كقوله عن أبى المطهر صاحب الحكاية : « والظاهر أنه ولد فى الربع الاخير من القرن الثالث فقد كان فى سنة 306 من الفتيان الماجنين » وكقوله : « فحكاية أبى القاسم البغدادى وضعت بلا ريب فى أواسط القرن الرابع . » (16)

---

(12) الامتاع 1 ، 140

(13) الحكاية ، 82 .

(14) الامتاع 11 ، 183 .

(15) الحكاية ، 87 .

(16) النثر الفنى 1 ، 416

ولا شك أن بلاشير ومسنو كانا أكثر توفيقا حين قالا ان الأزدى ينتهى الى نهاية القرن الرابع أو بداية الخامس . (17) ومهما يكن من أمر فان الانتباه الى تشابه هاته الصفحات فى كل من الامتاع والحكاية يمكننـا من تصويب أحد النصين بالاستعانة بالنص الآخر ، ولا شك أن الحكاية هى المستفيدة الاولى من مثل هذا العمل ، غير أن ذلك لا يعنى أننا نثق فى نص الامتاع ثقة عمياء بل ربما لاحظنا فيه هو الآخر بعض الخلط ، وليس ذلك عجيبا ما دام أبو حيـان قد سمع هذا الحديث سنة 360 هـ بينما هو ألف الامتاع سنة 374 هـ .

لمـن هذه الصفحـــات ؟

ان صدقنا المؤلفين كليهما فانهما يكونان سمعا هذا الحديث معا سنة 360 هـ ولكن الامر المحير هو أننا نجد عند كليهما تلك الفقرة الاخيرة المتعلقة باحصاء القيان والمغنين فى الكرخ رغم أنها لا تدخل ـ حسب الظاهر ـ ضمن الحديث الذى سمعاه . فلا بد أن أحدهما قد نقلها عن صاحبه . فهل نقل التوحيدى عن الحكاية ؟ (وبذلك تكون الحكاية ألفت قبل الامتاع) أم هل الأزدى هو الذى نقل عن أبى حيان ؟ (18) (وبذلك يكون الامتاع قد ذاع فى القرن الرابع رغم حرص التوحيدى على كتمانه) أم نقلا معا عن ثالث ؟ لا شـك أن الافتراضات تكثر وتتشعب فى مثل هذه المسألة (19) ولكننا على كل حال متأكدون من أن أصل هذه الصفحات حديث سمع سنة 360 ، وأن نصين حفظا لنا هذا الحديث وللافتراض بعد ذلك مجال ـ

القيمـة الوثائقية لهذه الصفحات :

تعتبر هذه الصفحات وثيقة هامة عن الحياة الغنائية فى بغداد فى منتصف القرن الرابع ، ويمكن أن نعدها من بعض الجوانب **تكملة لكتاب الاغانى الكبير**

---

(17) Maqāmāt p. 12

(18) وقد قال الأزدى فى مقدمة حكايته « هذا الذى أحصله من أدب غيرى واقتنيه واتحلى به وادعيه وأرويه ... »

(19) انظر مثلا تذبذب زكى مبارك فى نسبة بعض الصور الادبية الواردة فى الحكاية وفى غيرها من تآليف القرن الرابع : النثر الفنى I ، 424 ، 425 .

(20) اذ هي تذكر لنا أسماء كثير من المغنين والقيان ومشاهير أهل الطرب كما تدلنا على الاغاني الرائجة وتأثيرها في السامعين ، وهي تتضمن وصفا لمجالس الغناء المنعقدة في أحياء بغداد ودروبها ، وتصويرا رائعا للمناخ الفني والعاطفي والفكري السائد في هذه المجالس التي يمكن وصفها بأنها **مجالس شعبية** تصدح فيها القيان ويترنم المغنون في جو من الحرية والانطلاق بعيدا عن احتكار البلاطات ودسائس القصور ٠

نجد في هذه الوثيقة (21) عدة معلومات عن مطربات تلك الفترة ؛ من ذلك أن منهن من كانت لها أصوات معروفة بها (22) ، كما أن منهن من لها اسم فني تشتهر به كالحال في أيامنا هذه (23) ، وربما كان لبعضهن مواسم فنية لا يغنين للشعب الا فيها مثل درة جازية أبي بكر الجراحي التي لا تقعد في السنة الا في رجب (24) ، كما يسترعي انتباهنا ذكر قينة باسم ترف الصابئة (25) وجمع احدى القيان بين الغناء والنواح (26) ٠ وكان حديث القيان زاد المجالس فهذه صبابة « لم يكن للناس غير **حديثها** لنوادرها وحاضر جوابها وحدة مزاجها ٠٠٠ » (27) وهذه قنوة البصرية (28) ، جارة ابن حجاج شاعر السخف

---

(20) وحق لصاحبها أن يعتذر من الاطالة مخافة مزاحمة كل من صنف كتابا في الاغاني والالحان : الامتاع II ، 183 والحكاية ، 87 ٠

(21) التي ان فاتت المستشرق فارمر مؤرخ الموسيقى العربية ، فقد استفاد منها بعض الباحثين مثل جبور عبد النور = الجواري ص 99 ، 100 ، ط 2 (سلسلة اقرأ) ومحمد محمود سامي حافظ = تاريخ الموسيقى والغناء العربي ص 155 ، 1971 (مع أخطاء في ضبط الاسماء مثل ابن حيان عوض أبي حيان وأبي بكر بن صهير الصيرفي القاضي عوض أبي بكر بن صبر القاضي ٠)

(22) الامتاع II ، 167 والحكاية ، 87 وهناك أمثلة أخرى عديدة ٠

(23) الامتاع ، II ، 178 = جارية بنت خاقان المشهورة بعلوة ؛ وفي الحكاية ، 82 نفس الاسم دون الاشارة الى شهرتها به ٠

(24) الامتاع II ، 171 ؛ ولا نجد هذا التدقيق في الحكاية ، 79 ٠

(25) الامتاع II ، 170 والحكاية ، 81 ٠

(26) الامتاع II ، 181 والحكاية 73 ٠

(27) الامتاع II ، 182 والحكاية ، 84 ٠

(28) الامتاع II ، 172 ، وفي الحكاية ، 79 : فتوة القصرية وبعض الاختلافات الطفيفة ٠

وعشيقته « وله معها **أحاديث** ، ومع زوجها أعاجيب ، وهناك مكايدات ومعايرات وافشاء نكـات ٠ » ٠

وأما بخصوص المغنين فأهم ما نلاحظه بشأنهم هـو ارتبـاط الغناء عندهم بالتخنث مما يجعلنا نلمح نوعا من **الردة الى التقاليد الحجازية** ٠ وتمثل الاصوات المذكورة مختارات طريفة من الشعر الغنائى الرقيـق ٠ كمـا تكتسى هـذه الصفحات قيمة اصطلاحية لا تنكر (29) ٠ ويجب ألا ننسى **طرافة ذلك الكشف الاحصائى** الذى ورد فى نهاية هذه الصفحات ، فقد ورد فى الامتاع : « وقـد أحصينا ــ ونحن جماعة فى الكرخ ــ أربعمائـة وستين جاريـة فى الجانبين ، ومائة وعشرين حرة ، وخمسة وتسعـين من الصبيان البدور ، يجمعـون بين **الحذق** والحسن والظرف والعشرة ؛ هذا سوى من كنا لا نظفر به ولا نصل اليه لعزته وحرسه ورقبائه ، وسوى ما كنا نسمعه ممن لا يتظاهر بالغناء وبالضرب الا اذا نشط ٠٠٠ » (30)

نكتفى من هذه الفقرة بابراز **ظاهرة الحرائر المغنيات** ٠

ما هو يا ترى سبب هذا التحرر الاجتماعى الفنى ؟ هل هو تقدير المجتمع الاسلامى فى بغداد للفن بلغ الى حد اجازته للحرائر بعد أن كان مقصورا على القيان ؟ أم هو حسد الحرائر للقيان دفعهن الى محاربتهن بنفس السلاح الذى استعبدن بواسطته الرجال ، أعنى سلاح الظرف والغناء ؟ مهما كان السبب الحقيقى فلا شك أن سبق أميرة عباسية شهيرة هى علية بنت المهدى الى الغناء ، واشتهارها به قد مهدا الطريق لبروز هذه الظاهرة على هذه الصورة من الشيوع (رغم وجود بون شاسع بين الرقمين فى كل من الامتاع والحكاية) ٠ وان كنا

---

(29) ولهذا نجد حكاية أبى القاسم ضمن مراجع حسين محفوظ = معجم الموسيقى العربية ٠ ومن هذه المصطلحات الترجيع والترجيعات ، وقلب اللحن الى الحلق واستنزاله من الرأس ٠٠٠

(30) أما نص الحكايـة فهو : « وقد أحصيـت ــ أنا وجماعـة فى الكرخ ــ أربعمائة وستين جارية فى الجانبين ، وعشر حرائر ، وخمسة وسبعين من الصبيان البدور يجمعون من الحسن والحذق والظرف ما يفوت حدود الوصف ؛ هـذا سوى من كنـا لا نظفر بهم ولا نصـل اليهـم لعزتهم وحرسهم ورقبائهم ، وسوى من كنـا نسمعه ممن لا يتظاهـر بالغناء والضرب الا اذا نشط ٠٠٠ »

لا نشك أيضا فى أن هؤلاء الحرائر قد جاهدن ـ لافتكاك حقهن المشروع فى ممارسة الغناء والموسيقى ـ جهادا قاسيا ، وتعرضن لشتى صنوف العداء . فرغم أننا لا نجد فى هذه الصفحات أى اشارة الى معـاداة الفقهـاء العراقيين التقليدية للغناء وأهله ، فاننا نحس من خلالها بوطأة ذلك التيار العدائى على النفوس . وربما أمكن فهم ظاهرة الحرائر المغنيات على أنها لـون من ألـوان **التمرد** على نظم المجتمع الاسلامى المحافظ . كما أن تنكر أبى طاهر بن المقنعى المعدل للشهادة ، تلك الوظيفة الشرعية الخطيرة ، تنكرا وصل به الى حد لعنها والمجاهرة بتفضيل حياة الطرب والمجون عليها (31) لون آخـر من ألوان ذلك التمرد ، ولعل الكبت بأصنافه ، والشعور بالاختنـاق فى مجتمع محافـظ ، بالاضافة الى هذا التحرج الدينى الذى سببه التيار الفقهى المعادى للغنـاء من ناحية ، وتلك الفوضى الاجتماعية والسياسية من ناحية أخرى (32) ، لعل كل ذلك يفسر ما نلاحظه فى هذه الصفحات **من تفجر للحساسية الاجتماعية فى مجالس الطرب** ؛ اذ ما عسانا نقول ونحن نقرأ أن ابن فهم الصوفى اذا طرب « ضرب بنفسه الارض ، وتمرغ فى التراب ، وهاج ، وأزبد ، وتعفر شعره » بل أكثر من ذلك « فانه يعض بنانه ، ويخمش بظفره ، ويركل برجله ، ويخرق المرقعة قطعة قطعة ، ويلطم وجهه ألف لطمة » (33) أو ان ابن غيلان البزاز اذا طرب « انقلبت حماليق عينيه ، وسقط مغشيا عليه (34) » الخ ... ما عسانا نقول سوى أن تفجرا قد حدث فى الحساسية الاجتماعية (35) ، وأن مجلس الطرب قد هيأ له أسباب الظهور (36) ، وأن هذه الوثيقة شاهد قوى على كـل ذلـــك .

---

(31) الامتاع II ، 178 ـ 180 والحكاية ، 85 و 86 .

(32) ان الامتاع والمؤانسة خير مصور للفوضى السياسية والاجتماعية ، والحيرة الدينية والفكرية السائدتين فى تلك الفترة .

(33) الامتاع II ، 166 وفى الحكاية ، 78 ينسب بعض هذا الى المرزبانى .

(34) الامتاع II ، 167 والحكاية ، 81 .

(35) ان تنوع المقبلين على الطرب فى هذه الصفحات يخول لنا هذا التعميم ، وانظر الامتاع II ، 168 حيث تنتقـل العدوى ، عدوى هـذا الطرب العنيف ، الى كامل المجلس « وهناك ترى والله أحداق الحاضرين باهتة ، ودموعهم متحدرة ، وشهيقهم قد علا . »

(36) انظر عن انشغال الوزير ابن سعدان بظاهرة الطرب ، ووجهـة نظر الفلاسفة من هذه الظاهرة وهى تغفل البعد الاجتماعى ، فى الامتاع ـ I ـ 215 ، 216 .

وفى الختام ، ربما مثلت هذه الصفحات بالنسبة لابى حيان ــ وهو الذى لم يملك في حياته جارية كالجوارى بله قينة من القيان ــ نوعا من التنفس والتعويض عن واقعه وحياته ، واقع الجد والخصاصة وحياة الكبت والحرمان ٠

القيمة الأدبية لهذه الصفحات :

ان خاصية هذه الصفحات هى الاقتضاب والايجاز ، ولكنها مشحونة بطاقة قوية من الايحاء ، وقدرة بالغة على التصوير ، وهى لذلك تكتسى من الوجهة الادبيةقيمة كبرى تبرز فى عدة نواح اذ أن طرافتها مزدوجة : طرافة فى الشكل ، وطرافة فى المضمون ٠

فنحن نجد فيها **شكلا أدبيا طريفا** ، هو تلك السلسلة من الاطراب ، فى كل حلقة من حلقاتها ذكر لطرب أحد الاشخاص على غناء أحد المغنين أو احدى القيان لصوت من الاصوات ، وتعليق على ذلك الطرب ، وأحيانا ذكر لبعض الاخبار المتعلقة بذلك الشخص أو بالمغنى أو بالشاعر صاحب الاغنية ٠

كما أن مادة هذه الصفحات مشتقة هى الاخرى من ظاهرة الطرب ، ويتمثل موضع الطرافة منها فى طريقة معالجتها للموضوع ٠ فنحن نلمح نوعا من السخرية من هذه الحياة الغنائية (37) يتجلى فى **التصوير الكاريكاتورى** للقضاة والمعدلين والصوفية وغيرهم وهم متخمرون بنشوة الطرب (38) ؛ ولكننا نلمح

---

(37) ان ورود هذه الأطراب فى الامتاع بصيغة النفى والاستهجان لما يدعم رأينا ٠ ولا عجب أن يسخر التوحيدى (ولا شك أن له يدا فى هذه الصفحات بكيفية أو بأخرى) من الطرب وأهله كنوع من رد الفعل والتشفى من حياة ربما لم يتمتع بها كغيره ؛ وانظر الامتاع ١ ، 216 حيث يلحق طرب سائر الناس ــ باستثناء الفلاسفة ــ « بما يعترى الطير وغيرها ! »

(38) وتتجلى السخرية فى استعمال مثل هذه العبارات :
« وهات من رجالك من يضبطه (ابن فهم الصوفى عندما يطرب)

كذلك **صبغة المأساة** تسرى فى هذا الطرب العنيف الذى توصلت هذه الصفحات عن طريق **نظرية العدوى** (39) الى ابرازه كظاهرة بشرية عامة ٠

والحق أننا لا نكاد نطمئن الى رأى ثابت بخصوص مقاصد صاحب هذه الصفحات ؛ فهل قصد الى التهكم من الطرب والطربين ؟ أم تعمق مفهوم الطرب وسبر أعماق هذه الظاهرة الفنية الاجتماعية مكتشفا فيها ضربا من ضروب المأساة البشرية ؟ ان القارىء يبقى مذبذبا بين هذين الانطباعين المتناقضين ، فهو تارة يمتلىء سخرية من هذا الطرب الرخيص ومن هذه القابلية العجيبة للانفعال المشط ؛ وهو تارة أخرى ينسجم مع هؤلاء الطربين فى هذا الجو المشبع بالطرب والمأساة فاذا الطرب طربه والمأساة مأساته ٠ ولعل حيرتنا فى فهم هذه الصفحات وترددنا فى تأويلها سبب من أهم أسباب روعتها ٠ وربما كانت صبغتها المحلية سببا آخر لهذه الروعة ٠ فهذه أحياء بغداد ودروبها وأسواقها ودكاكينها ماثلة أمام أعيننا ، وهؤلاء قضاتها وعدولها وزهادها وتجارها وقيانها ومغنوها يملؤون الدروب والاسواق غناء وطربا وحياة (40) ٠ حتى

ويمسكه ومن يجسر على الدنو منه ، فانه يعض بنابه ٠٠٠ » الامتاع II ، 166 ٠

« وهات الكافور وماء الورد ، ومن يقرأ فى أذنه (ابن غيلان البزاز) آية الكرسى والمعوذتين ، ويرقى بهياشراهيا ٠ » الامتاع II ، 167 والحكاية ، 81 ٠

أو مثل التصوير الذى حظى به ابن المقنعى الذى يرى وقد طار فى الجو ، وحلق فى السماء ، ولقط بأنامله النجوم ٠ الحكاية ، 85 والامتاع ، 179 ٠

(39) اذ أن ظاهرة الطرب « اذا استولت على أهل مجلس ، وجدت لها عدوى لا تملك ، وغاية لا تدرك ، لانه قلما يخلو انسان من صبوة أو صبابة ، أو حسرة على فائت ، أو فكر فى متمنى ، أو رجاء لمنتظر ، أو حزن على حال ؛ وهذه أحوال معروفة ، والناس منها على جديلة معهودة » الامتاع II ، 168 ، 169 والحكاية ، 79 ٠

(40) وفضلا عن حيوية هذه الصفحات فى حد ذاتها (شعر ٠ حديث ٠ غناء وصف ٠) نجد عند أبى المطهر الازدى مقوما آخر من مقومات الحيوية ربما استلزمته طبيعة المجلس ٠ ذلك هو الحوار بين أهل المجلس وأبى القاسم : الحكاية ، 78 ، 81 ٠

ليحق القول عن هذه الصفحات **انها عبارة عن أغنية متجددة الالحان وصورة متعددة الالوان** . فانها اذا مالت مثلا الى تصوير الجانب المأساوي من حياة القيان ، ونكتفي من ذلك بالاشارة الى نقطتين :

أ) احساس القينة بالغربة وشعورها بالسأم (41)

ب) كمدها وربما هلاكها من جراء حب مستحيل (42) .فقد عمدت بخصوص المغنين الى التركيز على اللون الماجن من سلوكهم ، وقدمت لنا - لتجسيم شخصية المغنى المخنث - نموذجين طريفين ، أحدهما « هذا الصبي الموصلي النابغ الذي قد فتن الناس وملأ الدنيا عيارة وخسارة ، وافتضح به أصحاب النسك والوقار ، وأصناف الناس من الصغار والكبار ، بوجهه الحسن ، وثغره المبتسم ، وحديثه الساحر ، وطرفه الفاتر ، وقده المديد ، ولفظه الحلو ، ودله الحلوب ، وتمنعه المطمع ، واطماعه الممنع ، وتشكيكه في الوصل والهجر ، وخلطه الاباء بالاجابة ، ووقوفه بين لا ونعم ... » (43 وثانيهما هو علوان غلام ابن عرس فانه اذا حضر ألقى ازاره ، وحل أزراره ، وقال لأهل المجلس : اقترحوا واستفتحوا فاني ولدكم ، بل عبدكم لاخدمكم بغنائي ، وأتقرب اليكم بولائي ، وأساعدكم على رخصي وغلائي ؛ من أرادني مرة أردته مرات ، ومن أحبني رياء أحببته اخلاصا ، ومن بلغ بي بلغت به ؛ لم أبخل عليكم بحسني وظرفي ، ولم أنفس بهما عليكم ، وانما خلقت لكم ... » (44) انه اذا كان الجاحظ في رسالة القيان والوشاء في كتابه الموشى قد صورا أبلغ تصوير

---

(41) انظر مثل « قلم القضيبية اذا تناوءت في استهلالها ، وتضاجرت على **ضجرتها** ، وتذكرت شجوها الذي قد أضناها وأنضاها ؛ **وسلبها منها وانساها إياها** » . الامتاع II ، 167 .
وقول سندس : « أنا والله **كسلانة** مشغولة القلب بين **احلام اراها رديئة** ، وبخت اذا استوى التوى ، وأمل اذا ظهر عثر . » الامتاع II ، 173 والحكاية ، 80 .

(42) انظر مثل حبابة وقد اشتراها أحد الخراسانيين « وخرج بها الى المشرق ، فقيل انها لم تعش به الا دون سنة لكمد لحقها ، وهوى لها ببغداد ماتت منه . » الامتاع II ، 181 والحكاية ، 83 .

(43) الامتاع II ، 174 ، 175 والحكاية ، 84 85 .

(44) الامتاع II ، 178 - 180 والحكاية ، 85 ، 86 .

اغراء القينة ، وتمثيلها المحكم لدور العشق والهيام سعيا منها لربط عشاقها ، فان هذه الصفحات قد صورت أبلغ تصوير اغراء المغنى المخنث ، وتمثيله لدور الفتى الطيع الذى يضع مواهبه ومحاسنه فى خدمة المعجبين كى يتم له استعبادهم وابتزاز أموالهم وهداياهم ؛ كما صورت لنا أحد المربوطين ، أبا طاهر بن المقنعى المعدل ، جاعلة منه نموذجا حيا لهذه الطائفة فى القرن الرابع ٠

قضية العباس بن الأحنف :

نختم بابراز مظهر طريف من مظاهر الحياة الغنائية فى المجتمع العربى الاسلامى فى تلك الفترة ، تناولته هذه الصفحات ، وجسمته قضية العباس بن الأحنف ، وهى تتمثل فى شعر غنائى للعباس يبين رأيه فى العشق وموقف المعتزلة من هذا الشعر الغنائى ٠

أما نص الامتاع فيذكر أن الزهرى يطرب على خنوب اذا غنت :

اذا أردت سلوا كان ناصركم قلبى وما أنا منكم بمنتصر
فأكثروا أو أقلوا من إساءتكم فكل ذلك **محمول على القدر**
وضعت خدى لأدنى من يطيف بكم حتى احتقرت وما مثلى بمحتقر

ثم يضيف « وأبو عبد الله المرزبانى شيخنا اذا سمع هذا جن واستغاث ، وشق الجيب وحوقل وقال : يا قوم ! أما درون الى العباس بن الأحنف ، ما يكفيه أن يفجر حتى يكفر ؟ متى كانت القبائح والفضائح والعيوب والذنوب **محمولة على القدر** ؟ ومتى قدر الله هذه الاشياء وقد نهى عنها ، ولو قدرها كان قد رضى بها ، ولو رضى بها لما عاقب عليها ؛ لعن الله الغزل اذا شيب بمجانة ، والمجانة اذا قرنت بما يقدح فى الديانة ٠ (45) »

وأما نص الحكاية فينسب هذه الثورة على رأى العباس فى العشق والقدر الى الواسطى : « وقد رأيت أنا هذا الواسطى وقد حضر بعض الاربطة وسمع من غنى بقول العباس بن الأحنف :

---

(45) الامتاع II ، 177

فأكثـروا أو أقلـوا مـن إسـاءتكم   وكـل ذلـك محمـول عـلى القـدر

فجن واستغاث ، وشق الجيب ، وحوقل واستغفر وقال : يا قوم ! أما ترون الى العباس بن الأحنف ، لا يكفيه أن يجن حتى يكفـر ؟ متى كـانت الفضائح والذنوب والعيوب محمولة على القدر الخ ... » (46)

ولكن الامر المهم هو أن هذا الموقف الفكرى من رأى العبـاس هـو موقـف المعتزلة ، **وأن باعث الشرارة الاولى لهـذه الثورة ضده انما هو عـدوه اللدود المعتزلى أبو الهذيل بن العلاف** ، فقد كان « يبغضه، ويلعنه لقوله :

إذا أردت سلـوا ...

فأكثـروا أو أقلـوا ...

... ويقول : يعتقد الكذب والفجور فى شعره . » (47)

وبذلك تكون أجيال المعتزلة قد تناقلت موقف أبى الهذيل ، وبقيت وفية له ، متحمسة فى الدفاع عنه .

ولا شك أن مجلس الغناء يتجلى من خلال هـذا الخبر بنصوصه الثلاثة ذا صبغة فكرية خطيرة (48) فى المجتمع الاسلامى . فالغناء ـ فضلا عن أهميته **كموضوع** نشأت حوله ثروة فكرية واسعة (49) ـ قد كان يكتسى أهمية من نوع آخر ، باعتباره وسيلة فعالة لنشر الآراء والمذاهب كما هو الحال بالنسبة لاذاعة الغناء رأى العباس فى العشق مما جعـل المعتزلة يستشيطـون غيظا ، وينبرون لدحضه ، ويلصقون بصاحبه أشنع التهـم .

---

(46) الحكاية ، 82 .

(47) المرزبانى = الموشح . تحقيق على محمد البجاوى ، دار نهضة مصر ، 1965 ص 448 .

(48) انظر رد أبى صالح الهاشمى على ثورة المرزبانى أو الواسطى الامتاع II 177 ، 178 والحكاية ، 82 : كأن مجلس الغناء استحال الى مناظرة .

(49) الفكر أكتوبر 1973 ص 36 .

صلوات ماقبل الوصول الى المعبد

شعر : نشأت المصري
(القاهرة)

حقا .. لم أشبع جوعى من ثدى يروى طفله
لم أمضغ كبدا يكرهنى
لم أترك نعش غريب أتعب أهله
لكن .. القهر يعشش فى أحشاء الانصات
فأظل ألبى ما تقذفه الأفواه
تذكر ؟.. لما أستأذنتك كى أخلو لله
والمحراب حشائش تعلو تاج الرأس
والباب صرير يسخر من أدران الأمس
إن يسألنى ربى :
ـ حين تصلى من أنت ؟
هل وجهك ما أعطيت ؟
يا عبدى ما اسمك ؟
سأجيب : نسيت .
.. قهقه فى الصدر عذابى ،
ملهاة جنون أن ينتحر الضوء الحالى
أن أتحول أطرافا أربع ، وحواسا خمس

●

أحلم
أبحث عن وجهى المدبر
أسعى للطوفان المستأخر
لا يبقى إلا مئذنة وصليبا تركع حولهما الأنوار
تسبح وتسبح فى عشقهما موجات الانهار
يتعبد فى ظلهما طفل غسلته الامطار
وأمير وذليل فقدا أمسهما فانطلقا فى ملكوت الاطهار

●

أمشى
أدهش للعربات السكرى تقتات دماء فى لون الحرمان ،
.. تقتل ولدا يبتسم فقيرا ، يلعب أول فصل فى ملحمة الملك سليمان

٠٠ حسب الولد البوق الناغم لحنا لا إنذارا يصرخ فى سمع الانسان
وعلى شط الرغبة صوت يهمس للاحياء الموتى ٠٠
يرفض منطق هر يتزاحم حول فتات البيت
يرقص منتظرا دوره
فى طابور لم يتحرك مره
والجسد عظام تكسوها الحسره

●

أجـرى
دائرة الاشياء ، الألوان ٠٠ الأبيض والأسود ٠٠ لا تتوقف
الموج الممتد المنحسر السامى نحو الشمس لينهزم الى البدء
الجمهور يصفق للرجل القافز أسلاك النار
والحارس يلعن باقى العمر بآخر كأس يشرعه فى وجه الاستمرار
٠٠ كل يحيا فى حضن الوهن يظن الدر رؤاه المنهاره
٠٠ فى كل جبين أقدام الغدر أماره
وأنا أجرى فرحا وحزينا ، مرآة للماره
أدرك أنى صرت غريبا
مبتعدا عن وجهى ولسانى
منتبها لحروف تنبض فى شريانى
حتى بات الصمت ضجيجا والضجة خرساء النبره
وتلاشى فى أذنى صخب الأشياء
إلا أنى أسمع أكثر
تتخثر أصوات الكون ، وتتكسر أجنحة الأصداء
أتحسس نغما يصاعد من عمق الأبد اللامتناهى
أرضى ٠٠ أتطهر
تتساقط أزهى المرئيات معراة بكماء

●

أتـدبـر
فالرؤيا غامت ، هامت ، لا أنظر هذى المدن الخرسانيه
لا أمسى درويشا لكنى أبصر أكثر
أقرأ طلسم نفسى
بعيون الشوق أرى الأبعاد بحجم القبضه
تصبح أقوى من ظلمات الأرض الومضه
أعرف أن الألم ، الندم ، الضحكات ٠٠ محطات تعبر ن٠ م٠

مقدمة في الشعر الملحون

بقلم : عبد المجيد بن جلو

لقد كنت أشرت فى أول هذا البحث (*) الذى خصصته لبحث المفرد الايقاعى فى الشعر الفصيح الى المفردات الايقاعية التى اقرها العروضيون القدامى ، وهـى :

السبب الخفيف (ـ o)
السبب الثقيل (ـ ـ)
الوتد المجموع (ـ ـ o)
الوتد المفروق (ـ o ـ)

كما اشرت الى المفردات الايقاعية المركبة وهمـا مفـردان : الاول منهمـا الفاصلة الصغرى وهى تتألف من سبب ثقيل وسبب خفيـف (ـ ـ) + (ـ o) = (ـ ـ ـ o)

أما المفرد الايقاعى الثانى المركب فهو يتألف من سبب ثقيـل ووتد مجموع (ـ ـ) + (ـ ـ o) = (ـ ـ ـ ـ o) ويدعى الفـاصلة الكبـرى ـ والفاصلة الكبرى مفرد ايقاعى لا يدخل اى بحر من بحور الشعر إلا فى حالات زحاف وفى بحور خاصة ولقد تبين بعد البحث والاستقراء والتأمل أن الغرض من اقرار هذه المفردات الايقاعية واقرار الوتد المفروق والسبب الثقيل فيها انما كان من اجل تأليف دوائر ايقاعية تضم البحور الستة عشر •

غير ان البحور الستة عشر لم تكن فى واقعها حسبما اشارت اليه هـذه االدوائر • لذلك وجد العروضيون انفسهم مضطرين الى خلق تغييرات غير ذات معادلات لتعديل الجمل الايقاعية اسموها علل الزيادة وعلـل النقص ـ وبعد استخدام هذه العلل فى كل بحر من البحور الشعرية حسبما جاءت به الدائرة نجد ان البحور جاءت على غير ما جاءت به الدوائر ـ وسوف نحلل هذا الرأى ببحث تحليلى يكشف للباحث منهج العروضيين •

(*) هذه الحلقة مواصلة للبحث الذى نشرت حلقات عديدة منـه على صفحات « الفكر » ابتداء من سنة 1965 •

وقبل ان نرسم صورة لهذه الدوائر الخمس ينبغى أن نشير الى الاعتبارات والاسس التى كان يراعيها العروضيون فى وضعها :

فنحن نعلم ان الجمل الايقاعية التى احصاها العروضيون عند وضعهم لهذا العلم عشرة واطلقوا على هذه الجمل الايقاعيــة اسم التفعيلــة ، وارجعوهــا الى اربع جمل اصول وستة فروع ٠

اما الجمل الاصول فهى التى تبدأ بأوتاد مجموعة كانت أو مفروقــة ، واما الفروع فهى التى تبدأ باسباب خفيفة كانت او ثقيلة ، فكــانت التفعيــلات الاصول على هذا الاعتبار اربعة ونحن وان كنا اشرنا اليها فى أول هذه المقدمة الا اننا سوف نتعرض لها فى هذا البحث بكثير من التفصيــل والتــدقيق

الجمــل الاصــول :

I   2

أ ـ فعولن (ـ ـ o) + (ـ o) = (ـ ـ o ـ o)

I   2   3

ب ـ مفاعيلن (ـ ـ o) + (ـ o) + (ـ o) = (ـ ـ o ـ o ـ o)

I   2   3

ج ـ مفاعلتن (ـ ـ o) + (ـ ـ) + (ـ o) = (ـ ـ o ـ ـ ـ o)

I   2   3

د ـ فاع لاتن (ـ o ـ) + (ـ o) + (ـ o) = (ـ o ـ ـ o ـ o)

الــــدائــرة (أ)

I   2

ويتولد عن الاصل الاول الــذى هــو فعــولن (ـ ـ o) + (ـ o) = (ـ ـ o ـ o) فرع ينشأ من تقديم المفرد الايقاعى 2 وتأخير المفــرد الايقاعى :

2   1

(ـ o) + (ـ ـ o) فاعلن ونحصل بعد هذه العملية على دائرة من الدوائر الخمسة ـ وتحتوى هذه الدائرة على بحرين من بحور الشعر وهما : المتقارب ، والمتدارك ٠

فالمتقارب وزنه : (فعـــو) (لـــن) فعولن فعولن فعولن أربع مرات

↑ مركز المتقارب ↑ مركز المتدارك

أما مقلوبه المتدارك فهو يتألف من لن فعو لن فعو لن فعو لن فعو أربع مرات

ويمكن أن نحولها الى : فاعلن فاعلن فاعلن فاعلن

2 I

المتقارب : (ـ ـ ه) + (ـ ه) أربع مرات

I 2

المتدارك : (ـ ه) + (ـ ـ ه) أربع مرات

وهكذا يتبين ان نقطة الارتكاز التى ينطلق منها المتقارب هى الوتد

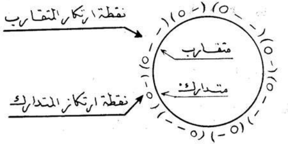
I

المجموع (ـ ـ ه) بينما نقطة الارتكاز التى ينطلق منها المتدارك هى السبب

2

(ـ ه) الى استيفاء الدائرة .

الدائـــرة (١)



وليس بالامكان ان يتولد عن هذه الدائرة اكثر من بحرين لان الجملة الايقاعية التى يتألف منها البحران لا تتعدى مفردين ايقاعيين هما وتد مجموع واحد وسبب خفيف واحد .

الدائرة (ب)

3 2 I

مفاعيلن = (ـ ـ ٥) (ـ ٥) (ـ ٥) وتد مجموع سببان خفيفان

ويتفرع عن مفاعيلن :

3 I 2

① فاعلاتن = (ـ ٥) (ـ ـ ٥) (ـ ٥) سبب خفيف + وتد مجموع + سبب خفيف

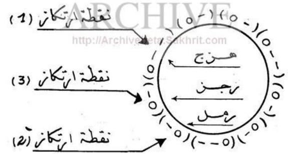
I 2 3

② مستفعلن = (ـ ٥) (ـ ٥) (ـ ـ ٥) سببان خفيفان فوتد مجموع

(مفـــا) (عيـــ) (لـــن) مفاعيلن مفاعيلن

هـزج رجـز رمـل

لذلك كانت الدائـرة (ب) يتولد منها بحور ثلاثة هي : الهـزج والرمل والرجـز .



ولبناء الدائرة فقط كرر العروضيون تفعيلة الهزج ثلاث مرات في حين أن الهزج لم يسمع الا على تفعيلتين فقط عند استقراء العروضيين

الدائرة (ج)

3 2 I

مفاعلتن : (ـ ـ ٥) + (ـ ـ) + (ـ ٥) = (ـ ـ ٥ ـ ـ ـ ٥)

ويتفرع عن هذه التفعيلة تفعيلة واحدة فقط رغم انها جملة ايقاعية مركبة من ثلاثة مفردات ذلك لان السبب الثقيل لا يمكن بتاتا ان يكون مفردا ايقاعيا مستقلا فهو جزآن مقطوعان من صوتين بدون قفلة فى كليهما لذلك كان لزاما على هذا المفرد الايقاعى ان يكون مضافا او تتمة لسبب خفيف او وتد مجموع لذلك كنت رفضت فى بحثى هذا ان يكون السبب الثقيل مفردا ايقاعيا ما دام لا يمكن له ان يستقل بذاته وللسبب نفسه لا يمكن ان يتولد

عن (ـ ـ o) [1] + (ـ ـ) [2] (o ـ) [3] = (ـ ـ o ـ ـ ـ o)

فاصلة صغرى

إلا : متفاعلن : (ـ ـ) [2] (ـ o) [3] (ـ ـ o) [1]

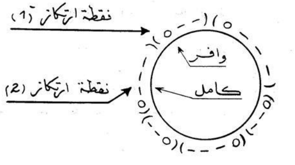
فاصلة صغرى

لذلك عددت الفاصلة الصغرى مفردا ايقاعيا قياسا على الوتد المجموع

لذلك كان لا يمكن ان يتولد عن الدائرة ج الا بحران فقط هما : الوافر والكامل .

الوافر : (ـ ـ o) [I] (ـ ـ ـ o) [2] ثلاث مرات

الكامل : (ـ ـ ـ o) [I] (ـ ـ o) [2] ثلاث مرات

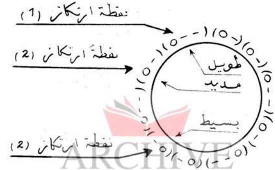


وتجدر الملاحظة هنا بأن الوافر لم يأت على مفاعيلن ثلاث مرات بل جاء هكذا :

مفا علتن مفا علتن فعو لن

الدائرة (د)

أما الدائرة (د) فهي دائرة مؤلفة من الدائرتين (أ) فعولن



والدائرة الثانية (ب) مفاعيلن

1 2 1 2 3

(ــ ــ ٥) + (ــ ٥) + (ــ ــ ٥) (ــ ٥) (ــ ٥) مرتين

فعو لن مفا عيـ لن فعو لن مفا عيـ لن

1 2 1 2 3

الطويل : (ــ ــ ٥) + (ــ ٥) + (ــ ــ ٥) + (ــ ٥) + (ــ ٥)

1 2 1 2 3

(ــ ــ ٥) + (ــ ٥) + (ــ ــ ٥) + (ــ ٥) + (ــ ٥)

مسـ تف علن فا علن مسـ تف علن فا علن

2 3 1 2 1

البسيط : (ــ ٥) + (ــ ٥) + (ــ ــ ٥) + (ــ ٥) + (ــ ــ ٥)

1 2 1 3 2

(٥ – –) + (٥ –) + (٥ – –) + (٥ –) + (٥ –)

فا علا تن فا علن فا علا تن فا علن

1 2 3 1 2

المديد : (– ٥) + (٥ – –) + (٥ –) + (٥ –) + (٥ – –)

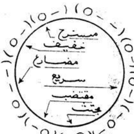
1 2 3 1 2

(٥ – –) + (٥ –) + (٥ –) + (٥ – –) + (٥ –)

الــدائــرة (هـ)

الدائرة (هـ) : هى الدائـرة التى ترتكـز على الوتـد المفـروق (– ٥ –) ويتولد عنهـا من البحور : الخفيـف والمضارع والمقتضب والمجتث والسريـع والمنسرح ومن يدرس هذه الدائرة ويتأملها يعرف متى تكتب (فاع) لاتن و مســ (ــتفعــ) ــلن بهذا الشكل ٠

وتنشأ عن هذه المعرفة معرفة الزحافات والعلل التى تدخـل البحـور ٠ فما يظن أنه قبض أو خبن فى بعض البحـور هو فى الحقيقـة ليس زحافا انما هو علة من العلل ٠ وسوف يتبين لك ذلك عندما تتأمل وضع هذه الدائـرة التى يتولد عنها ستة بحور ٠



ولكى يتضح لك الأمر خذ هذه الصورة لهـذه البحور وكيف تؤلف جملهـا الايقاعية حسب هذه الدائرة ٠

السريع { مسـ تفـ علن)(مسـ تفـ علن)(مفـ عو لات
(-o-)(o -)(o -)(o - -)(o -)(- o)(o - -)(o -)(o -)

المنسرح { مسـ تفـ علن)(مفـ عو لات)(مسـ تفـ علن
(o - -)(o -)(o -)(- o -)(o -)(- o)(o - -)(o -)(o -)

المقتضب { مفـ عو لات)(مسـ تفـ علن)(مسـ تفـ علن
(o - -)(o -)(o -)(o - -)(o -)(o -)(- o -)(o -)(o -)

المجتث { مسـ تفع لن)(فا علا تن)(فا علا تن
(o -)(o - -)(o -)(o -)(o - -)(o -)(o -)(- o -)(o -)

الخفيف { فا علا تن)(مسـ تفع لن)(فا علا تن
(o -)(o - -)(o -)(o -)(- o -)(o -)(o -)(o - -)(o -)

المضارع { مفا عيـ لن)(فاع لا تن)(مفا عيـ لن
(o -)(o -)(o - -)(o -)(o -)(- o -)(o -)(o -)(o - -)

ولم يأت أى بحر من هذه البحور الستة على ما تضمنته الدائرة سوى بحر واحد هو الخفيف .

هذه نظرة عامة حول تأليف الدوائر وحول تحديدها للبحور ، وسوف نتعرض فى الرسالة القادمة الى دور العلل والزحافات فى ارجاع هذه الاوزان الى أصلها المسموع على أنه يمكن استخدام هذه الاوزان فى بناء الموشحات وفى اختراع صيغ جديدة للايقاع العربى دون الوقوف على المسموع .

ع. ب. ج.

مولد قصيدة

شعر : البشير المناعي

أومض فى الأعماق لمح الشهاب
في شارع يجتاحه الاصطخاب
أومض وخز البرق فى رأسه
أتركه ، أمضى وراء السحاب
يظننى ضعت ٠٠ يلم الرؤى
ينسى يدا دقت بقلب الضباب
وينطوى يوم ٠٠ وعام ٠٠٠ فما
للعمر ، للتاريخ ، عندى حساب
عمرى هو التاريخ ٠٠ اشراقتى
هى المدى ، لا ينتهى ، لايجاب
وبغتة ٠٠ ينفض عن جفنه
شيئا ٠٠ كما رف جناحا عقاب
كما هوت فوق الثرى قطرة
من غيمة مجهولة ٠٠ من سراب
ـ وهم ٠٠ أعادت ؟
إنه صوتها ٠٠
ـ أعرفه ـ يهمس خلف الحجاب
يشتد ، يجتاح بلا موعد ،
بلا صدى ، ينذرنى بالعقاب
يضيء بالذكرى ٠٠ يصب السما
فى شفتى غمغمة من رباب
يا للصراع الحلو ٠٠ ما بيننا !
أرهقته ٠٠ ما زلت حتى استجاب
وأغلق الدنيا على طرفه
فما يرى إلا رؤاى العذاب
ـ الدرب ٠٠ فى زحمة ضوضائه ،
والبيت ، والمقهى ، ولغو الصحاب
وحدى أنا الضوضاء فى سمعه
وحدى التى يقرؤنى فى الكتاب
ينفثنى عبر الدخان الذى
يمور حولى خصلا فى اضطراب
يثمنى فى الغيم ٠٠ يصطادنى
لو تعرف الكأس كفاح الشراب !
ابدأ إذن ٠٠ جمد على مزقة
بيضاء ، أو سمراء ، هذا العذاب
فى غفلة عن كل ما فى الدنى
أدب فى مزقته ٠٠ فى غياب
بيتان ٠٠ قد أوثقنى ٠٠ خمسه ،
أفلت منه ٠٠ يا لسحر الغلاب !
غدائرى فى كفه
ثورتى فى يده
أسرار صدرى الرطاب
أهوى على جبهته عاصفا
وتارة ٠٠ همس اللمى المستطاب
وتارة ٠٠
ـ لا ، لن تبوحى ٠٠ فما
ارضى بأن يهتك كل النقاب
هذى أنا ٠٠
حشرجة مرة
تحمل للفنان
برد الشباب ٠٠

ب٠ م٠

بين المعالم والمعابر

بقلم : محمد العنابي

ان الغربيين لم يقفوا عند حد الاعتناء بتلقين ابنائهم تواريخهم وعرضها عليهم بل تجاوزوا ذلك الى ما هو أبعد أثرا فى نفوس الامة فأقاموا التماثيل لعظمائهم بالساحات العامة وشيدوا باسمائهم المعالم الفخمة وسموا الانهج والساحات باسماء افذاذهم فى العلم والادب والاختراع والسياسة والقيادة.

ولا براح ان لذلك اثره فى النفوس لما جبلت عليه النفس من الطموح الى العظمة والتعلق بأسباب الشهرة والخلود .

فالنشء الذى يغدو ويروح كل يوم وفى طريقه تلك النصب والمعالم والاسماء المرسمة على الطرق والازقة تستلفت نظره وتترك فى نفسه أثرا وأى أثر ، فتنتزع نفسه الى سبل المجد والكفاح وتشق طريقها الى العظمة وحسن الاحدوثة ، فيأتى منه عظيم فى العلم أو السياسة أو الادب أو الفن .

ووفاء بالواجب المفروض ـ واجب التعريف بأعلام رسمت اسماؤهم على لوحات حديدية جعلت كأسماء للطرقات تقع بين سمع من يسمعها وينظر اليها من سكان احياء مدينة تونس ولا يعرفون من هو ابن البرا ولا ابن تاشفين ولا الطرودى ولا الرميمى ولا القرجانى ولا ابن الفرس فوفاء بذلك سنوالى ما سمحت بذلك الفرصة نشر توضيحات وتعريفات باصحاب تلك الاسماء .

نهج المناطقى :

هو من أشهر أنهج ربض باب الجزيرة ويقع قريبا جدا من بناية قوس الباب الجديد : أحد أبواب تونس المشهورة .

والمناطقى هذا ، واسمه عبد الرحمن ، من أبرز رجال التصوف وفضلاء الزهاد العباد ، ساح كثيرا بالمغرب والمشرق ، واجتمع بأفاضل أهل العلم

والتصوف مثل : عبد الله القرشي بمصر ، ومحمد الفخر الفارسي ، وعبد العزيز بن أبي بكر القرشي بتونس ، وأبي سعيد الباجي ٠

وقد انقطع المناطقي للعبادة والنظر بجبل زغوان ، وكان هذا الجبل مراد المتصوفين ، وكان العشابون المترددون على الجبل لجمع الاعشاب الطبية يترقبون خروجه للاحتماء به تقية من الحيوانات الضارية هناك ، فقد قيل : ان الحيوانات المذكورة اذا رأته تفر وتبعد عنه وعمن يكون معه ٠ ومما يحكى عنه انه كان يكلمها ويحذرها من أصحابه فتبتعد عنهم ٠

وقد نقل الى أبي سعيد الباجي ما شوهد من احوال المناطقي بزغوان وما ناله من الشهرة ، فبعث اليه رسالة شفوية يقول فيها : « دع عنك ذلك وانظر الى العيون الفلق في المحاجر الزرق » ٠

وبسماع ذلك انتقل المناطقي من زغوان الى تونس واستقر بها ، وعرفت له بها كرامات ، وكانت له أذكار وأدعية تنسب اليه ٠ وبتونس كانت وفاته سنة 630 ودفن جبلي الباب الجديد بدار تعرف باسمه المسمى عليها النهج المذكور وهي الدار التي هي الآن في تصرف ورثة المرحوم ابن ميلاد صاحب مصنع التجليد ٠

وبهذا النهج تربة أبرز ما تمتاز به وجود قبر العلامة النظار مفخرة الاندلس وتونس قبر ابن الغماز فمن هو ابن الغماز ؟

ابن الغماز :

هو احمد بن محمد بن الحسن بن محمد بن عبد الرحمن بن سعد بن سعيد بن علي بن مكنف الخزرجي الازدي البلنسي كان والده من فقهاء بلنسية وزهادها ولد يوم عاشوراء ببلنسية عام 609 وتوفي بتونس يوم عاشوراء سنة 693 ، ومن العجيب اتفاق يوم ولادته بيوم وفاته فكلاهما وقع يوم عاشوراء ٠

وقد غلط صاحب المرقبة العليا في تاريخ وفاته اذ قال : انها كانت في رمضان سنة 633 كما غلط الشيخ محمود مقديش اذ قال : انها وقعت في المهدية وقد اشتبه عليه ابن الخباز بابن الغماز ٠

والغماز كشداد من الغمز بمعنى الجس والكبس باليد يقال : غمز القناة جسها وعضها ليختبرها ٠

وقد تعلم ابن الغماز ببلده بعد حفظه القرآن وظهرت مخائل نجابته وتطلعه للمزيد من المعارف فأخذ عن محمد بن احمد بن صاحب الصلاة القرآن برواية نافع من طريقها جمعا ، فى ربيع سنة 621 وأخذ عن محمد بن سلمون كتاب التيسير واكثر من الاخذ والاستفادة من ابى الربيع الكلاعى سمع منه الموطأ برواية يحيى بن يحيى وابن خيرة الاندلسى وأبى الحسين السراج كما اخذ عن اللخمى العزفى السبتى وأبى بكر بن محرز ببجاية وأبى المطرف بن عميرة وأبى الحسن بن نصر وأبى الحجاج بن عبد الرحمن وأبى نصر فاتح بن عبد الله البجائى وروى عن أبى عبد الله ابن روبيل كتاب الصحبة للسلمى وروى عن أبى عبد الله بن على بن الزبير وأبى عثمان بن زاهر وابن قطرال ومحمد بن أبى السداد .

وكاتبه واجاز له غير من ذكر تسعة وثمانون عالما من المشرق والمغرب والاندلس ذكرهم جميعا المراكشى فى القسم الاول من السفر الاول من كتابه الذيل والتكملة لكتابى الموصول والصلة ص 410 ـ 411 ـ 412 .

ومن أبرز من قرأ عليه ابن راشد القفصى وابن جابر الوادى آشى وأبو العباس الغبرينى وأبو الحسن التجانى وأحمد البطرنى .

كان يقرىء العلم بداره وكانت مفتحة صباحا ومساء وهى الدار التى دفن بها . كان رحمه الله فقيها مفتيا عارفا بالوثائق متميزا فيها وصفه الشيخ مخلوف فى شجرة النور الزكية بقاضى القضاة الراوية العالم المتفنن المتقن . ووصفه فى درة الحجال بالعلم والفضائل والرئاسة والتدين وحسن الخلق وأنه معروف بالعدالة والنزاهة وكان أعلى أهل افريقية اسنادا فى القرآن .

وقد عرف بالمطايبة والكرم والصبر وحسن التدبير ومحبة الناس له مع ما فيه من صلابة فى الحق مع نبوغ فى السياسة وكانت له عناية بلقاء رجال الحديث .

ولسموه فى الثقافة العامة وتفوقه فى معارجها ونبوغه فى الادب والشعر ونفاذ رأيه فى السياسة والادارة تعلقت رغبة الخليفة الحفصى به فسمى أولا عدلا ببجاية والعدالة كانت هى المعبر للقضاء والفتوى ، ثم ولى القضاء بها والخطابة بجامعها الاعظم ، ثم دعى الى القضاء بالحاضرة تونس عوضا عن ابن الخباز وظهر من نبله فيه ما عجز عنه غيره ممن تقدمه ، وعزل ثم ولى القضاء مرارا لا عن ريبة بل يؤخر عنه لما هو أرقى ويرجع اليه عند المهمات ، ولم

يقبل قضاء الجماعة بتونس الا بشروط شرطها على المستنصر الحفصي : أن يكون على رأيه في الدخول على الخليفة متى شاء ، وأنه اذا عرضت له مشورة السلطان فى شيء من شؤونه أجاب عليه لحينه بالمشافهة والمكاتبة ، وان تكون جرايته وجراية أعوانه من الاعشار الرومية ٠

وقد كانت ولايته للقضاء الاخيرة فى 19 رمضان سنة 691 ومات وهو عليها ، وقيل استقال من القضاء وعكف على الدرس والرواية والتصحيح ٠

ولم اقف بين المصادر التى تحدثت عن ابن الغماز من ذكر انه أعقب ذرية تحمل لقب ابن الغماز بتونس ، نعم ذكر فى نفح الطيب انه جلس حسب العادة بجامع الزيتونة لارتقاب الهلال ونزل الشهود من الصومعة واخبروه بانهم لم يهلوه وورد اثرهم حفيده الصغير فاخبرهم أنه أهله فأرجعهم معه فاراهم الهلال فقال أبو العباس ابن الغماز : (ما اشبه الليلة بالبارحة) وقع مثل هذا مع أبى الربيع بن سالم فانشدنا فيه :

توارى هلال الافق عن أعين الورى	وأرخى حجاب الغيب دون محياه
فلما تصدى لارتقاب شقيقه	تبدى له دون الانام فحياه

فهذا النص يفيدنا بوجود حفيد له ولكن لا ندرى هل هو ابن ابنه أو ابن ابنته ؟ ذلك ما لا نعلمه ٠

حياته السياسية :

لبعد نظره وحصافة رأيه وقوة حجته وسمو بيانه فى الكتابة والخطابة ، جعله الخليفة الحفصى ضمن هيئة الوفد الذى وقع المعاهدة مع الملك (سان لوى) فى حملته الصليبية على تونس وكتب الصلح على يدى القاضى ابن زيتون ٠ ولكفاءة ابن الغماز ونبوغه فى ميدان السياسة وقع عليه اختيار المستنصر الحفصى فى سفارة الى المغرب الاقصى فنجح فيها ووصف من رئاسته وعلو همته بما دل على فضله وانتخاب طينته ٠

ومن مواقفه الخالدة فى هذا المجال قيامه بشؤون الناس ببجاية بعد ان عاث فيها المفسدون بعد خروج الجيش لحصار (مليانة) فقام ابن الغماز على شؤونها وشيد اسوارها وحصن أبراجها وظهر من كفاءته ورجاحة عقله وكمال فضله ونبله واجتهاده ما حمد به أمره وجل به قدره ٠

هذا ابن الغماز العدل المبرز القاضى العادل والسياسى المدرك المحنك ٠

أما ابن الغماز الاديب النابغ فنجد بين المصادر الوثيقة قطعا من شعره تبين عن روح شاعرية يتمثل فيها سمو المعانى الجدية الروحية فى تماسك سبك وقوة حوك وحبك من ذلك قوله :

هو الموت فاحذر ان يجيئك بغتة ... وانت على سوء من الفعل عاكف
واياك ان تمضى من الدهر ساعة ... ولا لحظة الا وقلبك واجف
وبادر بأعمال تسرك ان ترى ... اذا نشرت يوم الحساب الصحائف
ولا تيأسن من رحمة الله إنه ... لرب العباد بالعباد لطائف

ومثله قوله :

أما آن للنفس ان تخشعا ؟ ؟ ... أما آن للقلب أن يقلعا ؟ ؟
أليس الثمانون قد أقبلت ؟ ؟ ... فلم تبق فى لذة مطمعا
تقضى الزمان ولا مطمع ... لما قد مضى منه أن يرجعا
تقضى الزمان فوا حسرتى ... لما فات منه وما ضيعا
ويا ويلتاه لذى شيبة ... يطيع هوى النفس مهما دعا
وبعدا وسحقا له إذ غدا ... يسمع وعظا ولن يسمعا

* * *

وقوله :

يا منفق العمر فى حرص وفى طمع ... الى متى قد تولى وانقضى العمر ؟
الى متى ذا التمادى فى الضلال أما ... تثنيك موعظة لو ينفع الذكر
بادر متابا عسى ما كان من زلل ... وما اقترفت من الاثام يغتفر
وجانب الحرص واتركه فما أحد ... ينال بالحرص ما لم يعطه القدر
ولا تؤمل لما ترجو وتحذره ... من ليس فى كفه نفع ولا ضرر
وفوض الامر للرحمن معتمدا ... عليه فى كل ما تأتى وما تذر
واحذر هجوم المنايا واستعد لها ... ما دام يمكنك الاعداد والحذر

وقوله :

وقالوا : أما تخشى ذنوبا أتيتها ... ولم تك ذا جهل فتعذر بالجهل
فقلت لهم : هبنى كما قد ذكرتم ... تجاوزت فى قولى واسرفت فى فعلى
اما فى رضا مولى الموالى وصفحه ... رجاء ومسلاة لمقترف مثلى

وقـولـه :

مـن كان يعلـم لا محالـــة أنـه لا بد ان يودى وان طـال المـدى
هلا استعـد لمشهـد يجـزى بـه من قد أعد من اهتدى ومن اعتدى

وانشد رحمه الله واغدق عليه شئابيب رحمته وغفرانه في اليوم الذى مات فيه وهو آخر ما سمع منه قوله :

ادعوك يا رب مضطـرا على ثقـة بما وعدت كما المضطـر يدعوكـا
دارك بعفوك عبدا لم يـزل ابـدا فى كل حال من الاحوال يدعوكا
طالت حياتى ولـما اتخـذ عمـلا إلا محبـة أقـــوام أحبـــوكـا

هذه المامة تاريخية تتصل بمعبر ـ طريـق ـ من معابر مدينة تونس لم يعرف سكانها من هو المناطقى ومن هو ابن الغماز ولكل منهما مكانته في الفضل والعلم والعمل والنباهة فى الذكـر ، وحبـذا لـو تتوفـق جهـود المصلحين المخلصين الى الدعوة للمحافظة على هذه الاماكن الاثرية وعدم طمس أضرحـة من بها من رجال العلم والادب والفكر وفى ذلك وفـاء بالواجب لمن كان أحسن عملا وأقوم سبيلا ·

م· ع·

استـــــدراك :

تسرب خطأ مطبعى فى قصيد زهر البنفسج بكانى للشاعر عبد المجيد بن جدو المنشور فى عدد أفريــل 1974 من مجلة الفكر فى السطر 19 :

يا كاس هل احسست يوما وحشة فى النفس ان لا تحتسيك ندامى

عوضا عن « ان لم » ·

التربة الفريدة

شعر : عبد العلى الودغيرى

من أين جئت ؟ متى عصرت بكأسها ؟ هل كنت كرما ناضجا أم حصرما ؟
لم أعرف الغيم الذى قد صبنى فى نهرها ، فوجدتنى متقادما
أأكون يوما قد وجدت بمقعد فى جانب المقهى ، شرودا ساهما...
بين الذين تبعثرت أحلامهم بين الدخان ، فعن طيفك قادما ؟
أم كنت ريحا راكدا ، وتحركا فى غير موسمه ، فصادف موسما ؟
وإذن أكون ولدت قبلك من سنيـ ـن ، ولانتظارك جئت هذا العالما
أم كنت غصنا يانعا لما أتى عصفورك الغريد فوقك وارتمى ؟
أم أنت ساقية ؟. نعم . لم توجدى إلا لأحفظ منك لحنا ساجما
وإذا يكون كذا . فانى صخرة عرضت لديك فانقشى فيها كما...
يبدو لقلبك منذ يوم ولادتى ما دمت نقشا سوف أبقى سالما
هون عليك ، فانها فجر يد ب إليك فاتح أذرع متبرعما
لكن متى عهدى بهذا الفجر يأ تى ، باكرا ، يأتى صدوقا عارما ؟
عهدى بقلب الناس مرا قاسيا وبليلهم عهدى شجيا فاحما
من أين جئت ؟ فهل قطرت مع الندى حتى يفعت مع الشعاع وقد نما ؟
أم قادنى الموج العتى لشاطئ. فوجدت نفسى فى يديك محطما...
نغما حزينا ؟.. أين كان ملحنى يوم التقينا ، هل ترى لن يعلما ؟
لم أدر فى أى المزامير الشجية (م) كان يعزف قطعتى مترنما
لم أدر من أى المنابع ساقنى هذا العباب.فلست أحفظ معلما...
عن لحظتى الاولى ، أكنت إذن أبى أم إخوتى . أم بعض لحمى . أم دما ؟
أم كنت أمى ؟ موطنى ؟ ما موطنى ؟ أحبيبتى ؟. هل كنت شعرا ملهما ؟
فلقت نسيت ، نسيت أنك تربتى منك اصطنعت يدا ، وقلبا . أعظما
منك اشتممت إذن هوائى بعدما رممت ذاكرتى ، وعدت لأعلما :
لو كنت يوم لقيتنى موتا لما آلوت جهدا فى لقائك باسما
أترى يكون الموت من أجل الحيا ة . ولا أكون به قريرا . ناعما ؟

ع. و.
(فاس)

السفر والهجر المضنى ٠٠٠

قصة مصطفى مدائنى

أنا قطار الحزن ٠٠
لا رصيف لي ٠٠
أقصده ٠٠٠ فى كل رحلاتى
أرصفتى جميعها ٠٠ هاربة
هاربة ٠٠٠
منى محطاتى ٠٠٠

ـ نزار قبانى ـ

* * *

كنت أسير فى الشارع فى اتجاه المحطة ٠ وبذهنى تستحم آلاف الذكريات والصور والاخيلة ٠ وكان الجو رماديا وعصافير ليلية تحوم فى الاجواء عندما تقدم منى شخصان ، على وجهيهما تعبر ابتسامات متنوعة وايديهما بيضاء طويلة ٠ سلما على فى حرارة ٠ قبلنى أحدهما مصافحا فى أدب وبلهجة توسلية طلب منى أن أقدم له أوراقى الشخصية ٠٠٠ وبدون شعور ، أخرجت حافظة نقودى وقدمتها له ٠ نظر الرجل فى أوراقى ٠٠٠ ثم رمق صديقه وقال بلهجة آمرة : « هو ٠٠٠ هو من نبحث عنه ٠٠٠ » ثم التفت الى وقال : « لم نكن نقصد ازعاجك لكننا فى حاجة ملحة اليك ٠٠٠ »

وبعد صمت قصير أضاف « أيمكننى أن أنظر فى جبينك بامعان ٠٠٠ » بدا لى الامر فى غاية من البساطة فسكت ٠ أمعن الرجل النظر فى جبينى وضحك فى وجهى ٠٠٠ كان ضحكه جدولا عاصفا فى شارع طويل مقفر ٠ ولاول مرة أشعر باشمئزاز وانتابنى خوف راعش وشعور بخلو المكان ٠٠٠ ثم أحسست ان الاسفلت قد تحول الى صحراء رملية ٠٠٠ وغابت أنهار وقطارات وأوجه كنت رافقتها فى رحلاتى الماضية ٠٠٠ واستحمت بالافق شمس رمادية

خلف بحر قاحل ··· وتكلم الرجل الثانى بصوت أجش يشبه الى حد بعيد نعيق الغربان السابحة فى العراء · تكلم مؤكدا ضبابية الاشياء وحبه العميق لما ينتابها من تغير مسرف · وصمت · ثم سرح بنظره فى البعيد محملقا ··· أمسكنى الرجل الاول من يدى وسار بى بعض الخطوات ثم خاطبنى : « الك أصدقاء ·· ؟ » كان سؤاله ضبابيا لكنى وجدت الجواب بديهيا فأكدت بصوت رزين : « لى أصدقاء كثيرون ··· » ابتسم ثم سألنى : « من هم أصدقاؤك ··؟» بدا لى الجواب بديهيا لكننى أحسست بتلعثم ثقيل فى لسانى · رددت « أصدقائى ··· ! » فالتفت الى وعلى وجهه يرتسم ابتسام قاحل وأعاد : « أصدقاؤك ··· » أردت أن أركز فكرى لتفهم الاشياء لكن لسانى انطلق بكلام كثير فجأة ، مؤكدا أن كل الناس اصدقائى واحبائى ··· فانا منذ أن وطئت قدماى هذا الاديم أعيش مع الناس ··· أفكر مثلهم ··· بل انى ورثت عنهم عدة أشياء كان أغلبها فى صالحى ··· » وقاطعنى الرجل باشارة من يده والابتسام يلف وجهه ··· وبعد صمت قصير تغيرت ملامحه قليلا ثم سألنى بصوت دافىء : « وأعداؤك ؟ » ضحكت بداخلى عصافير ناعمة وحلقت فى أجواء بعيدة باحثة عن الليل ··· وشعرت ان الليل والصحراء والبحار الآسنة والرماح المشهرة فى الوجوه الرمادية ، ودوى الرصاص والاضمحلال فى مستنقعات الموت ··· لحن حزين كئيب رافقنى منذ الصغر ··· وبدون أن أشعر أحسست أن لسانى قد استعد منذ زمن بعيد للاجابة فانبرى بصوت جهورى يؤكد : أن العالم هو عدوى الوحيد » أومأ الرجل برأسه وغام ابتسام منتش فى وجهه وبدت على محياه غرابة ليلية · وصمت مدة قصيرة ثم تمتم داخليا وأطرق ··· ثم رفع رأسه ليرمقنى بعين شديدة ، بعثت الصداع فى رأسى ···

....

فأحسست بثقل الصحراء وصعوبة المشى فيها لمن كان لا يعرف الارتماء فى الابعاد ·· ولا يحسن السباحة فى الاعماق ···

....

م · م

لفتة الى قصص سلامة موسى

بقلم : حسن احمد جغام

ليس بين قراء العربية من لا يعرف سلامة موسى المفكر الذى سبق جيله بنصف قرن ، وليس بين كتاب العرب من هو أسهل فى التعريف منه ٠ انه كاتب يمزج الأدب بالعلم ، ولكنه يؤثر العلم على الأدب ، ومع ذلك يعشق الأدب الروسى ٠٠ وحسبنا أن نذكر رأيه فيه ، لنرى مدى تأثره بهذا الأدب ، حيث يقول : « ذلك أن القارىء لهذا الأدب يجد هواء جديدا وحنانا جديدا وانسانية جديدة ٠٠ »

ويعرف الكثير من قراء العربية أن سلامة موسى له آراء وأحكام للقصة الروسية بصفة خاصة ، هى ذات أهمية كبرى فى عالم النقد ٠٠

كان مثلا يكره التكلف فى الاسلوب ويدعو الى جحد الصناعات البيانية ٠ ومن خلال مؤلفاته التى تقارب الخمسين كتابا ، ندرك تأثره العميق بقراءته لقصص العمالقة أمثال : تولستوى ، وقوركى ، ودستويفسكى وأهرنبورج ، وغيرهم ٠٠ ومن آرائه الشهيرة فى القصة الروسية ، قوله : « حين يعمد المؤلف الروسى الى البراعة كما يفعل دستويفسكى احيانا ، تنقص قيمة القصة ، ولكنه حين يتناول أشخاصه كما هم ، فى سير الحياة وسرد الحوادث ، على الطبيعة والأصل والنزعة بلا أى مبالاة بالبراعة ٠٠ هنا فقط نجد الفن العالى ٠٠ »

لعل كل ذلك يعرفه الكثير من قراء سلامة موسى ٠٠ ولكن الذى قد لا يعرفه البعض من قرائه ٠٠ هو أن سلامة موسى أكثر اتصالا بعالم القصة ٠٠ وأن اتصاله بها تخطى قراءتها وتحليلها ، أو التأثر بها ، إلى كتابة القصة ، ومعالجة الهموم التى تشغل باله عن طريق هذا الفن ٠٠ وأكثر من ذلك فاننا عندما نبحث فى حياة سلامة موسى الثقافية ، نجد أنه كان من أوائل من اهتم بفن القصة ٠٠ ففى الصحف

الأولى التى كان يصدرها اعتناء كبير بنشر قصص مترجمة (1) ومؤلفة (2) ، وكان يجعلها فى أبرز مكان من هذه الصحف ٠٠ ومن الأدلة التى تؤكد لنا أن سلامة موسى من الرواد الأوائل فى الاهتمام بالقصة ، ومن المشجعين على ازدهارها ، ما كان يفسحه من مجال فى صفحات مجلته الجديدة لنجيب محفوظ (3) وغيره ممن تفوقوا فى هذا الفن ، وكذلك نجده ينشر قصة يحيى حقى « البسطجى » فى ملحق خاص بعدد من اعداد مجلته ٠٠

كان ذلك فى أوائل حياته الأدبية ٠٠ وهناك صور أخرى تدل على أن سلامة موسى لم يتعال على كتابة القصة ، ولم ينقطع عنها نهائيا ٠ بل نجده يكتب قصصا تنشرها مجلة « القصة » سنة 1951 ٠ وفى السنوات الاخيرة من حياته كتب قصصا فى جريدة « الاخبار » تدل على إدراكه الفنى للقصة بنفس مستوى إدراكه للأدب كله ٠

أما أهم أثر لسلامة موسى فى ميدان القصة (4) ، فهو يتمثل فى مجموعة قصص جمعت بعد وفاته (5) ، ونشرت سنة 1962 فى كتاب بعنوان « افتحوا لها الباب » ويحتوى هذا الكتاب على ثلاثة وعشرين قصة قصيرة ، وهى : قصة غرام ، أعظم المخدرات ، أحسن أم ، لماذا تتزوج ؟ ، ذكريات قلب ، خريف + ربيع ، طلقت أخى ، غرفة الخادمة ، الحيوان الذى كان انسانا ، ماتت 3 مرات ، تجربة علمية ، والدى العزيز ، لكن الله يرحمه ، العمارة ليست ملكه ، الى المعاش ، صوت الشيخ ، رؤيا ، اختلفوا على الجهاز ، موت

---

(1) ترجم فى « المستقبل » قصة « الجريمة والعقاب » لدستويفسكى ٠٠ حوالى سنة 1914 ٠

(2) انظر قصة « فاطمة » المنشورة فى (المجلة الجديدة) العدد السادس ، سنة 1930 ٠

(3) انظر الحديث الذى أجراه « إبراهيم الوردانى » مع نجيب محفوظ فى جريدة « الجمهورية » 1 ـ 12 ـ 1960 ، بعنوان : « علاقة نجيب بسلامة موسى » ٠

(4) يوجد لسلامة موسى فى بعض القائمات ، كتابان فى القصة هما : « قصص مختلفة » سنة 1930 ، و « مجموعة قصص » سنة 1952 ٠

(5) توفى فى شهر سبتمبر 1958 بالقاهرة ٠

عظيم ، افتحوا لها الباب ، هل انا قتلته ؟ ، قصة السبعة الكبار ، هجرتنا إلى القمر ٠

من هذه العناوين نستطيع ان نعرف أى نوع من المواضيع يعالجها سلامة موسى فى هذه المجموعة ٠٠ وهى واضحة : مشاكل العقل وهموم الانسانية٠٠ لذلك كانت هذه القصص أشبه بالبحوث والمحاورات ، والتحليلات النفسية٠٠ الشىء الذى يجعلنا نتخيل سلامة موسى ، يتسلل بين سطور هذه القصص ليعرض عن طريقها على قرائه تلك الافكار التى ظل يرددها طيلة حياته ٠٠ فهو فى هذه القصص يدعو الى مقارعة الفقر ، ويحرض على العلم والوصول الى المجد ، كما يوجه الى الحب الحقيقى والعاطفة الشريفة ٠ ٠

وإذا أعدنا النظر فى هذه الافكار المنتزعة من كتبه الخمسين ، وأعدنا ادماجها داخل ذلك الانتاج الذى نعرفه فى كتبه « انتصارات انسان » و « الانسان قمة التطور » و « التثقيف الذاتى » و « مشاعل الطريق للشباب » ٠٠ الخ ٠ لوجدناها هى نفسها فى نسق قصصى ، ولأدركنا ان هدف سلامة موسى من كتابة القصص هو هدفه من كل ما كتب : الحب ، الحنان ، الانسانية ، العلم ، المجد ، الخ ٠٠

وكان الحب يستغرق وجدان سلامة موسى دائما ٠٠ ولكنه حب المجد ، وحب الحياة ، وحب الجمال ، وحب الناس جميعا ٠٠ وأعماله الأدبية الكبيرة نجدها مقتبسة من جذوة هذا الحب ، الحب الكبير ٠٠ وتمشيا مع هذا المذهب ، يقول فى أول قصة من مجموعته ، وعنوانها « قصة غرام » : « ولكن ليس هذا كل الغرام ، فاننا نغرم بالمجد ، ونغرم بالفن ، ونغرم بالفلسفة ، ونغرم بالطبيعة ٠٠ و ٠٠ »

ومن ضمن هذه المجموعة قصته « ماتت ثلاث مرات » ، ولم يكن ابطالها أكثر من (عجوز تعسة وقطتها ٠٠ كان بينهما ، من وقت لآخر ، أحاديث وبكاء ومواء ، ولقمة مبللة وجرعة من الماء) ٠ ولكن هذه القصة أسمى وأنبل ما يمكن ان يصل اليه الاحساس المرهف والشعور العميق بالألم والفقر اللذين يعانيهما اشباح الموتى ٠ وان من لا يتحرك احساسه بمثل هذه القصة بعد قراءتها ، ولا تثير فى قلبه الحزن على المحطمين ٠٠ فلا يمكن ان يهزه شىء آخر ٠٠

وأما قصة « خريف + ربيع » فهناك من يقول (1) عنها : الأرجح انها اعترافات شخصية يتحدث فيها عن شخص سماه « ماجد » (امتاز بعبقرية الذهن ـ لا شك فى ذلك ـ ولكنه لم يمتز بعبقرية الحياة ، أجل إن هناك فرقا بين عبقرية الذهن وعبقرية الحياة ٠٠) ٠

يستوقفك فى قصص سلامة موسى ، انك تحس بأنها تنبعث من عقله ، لذلك لا تسحرك موسيقاها ، ولكنها تشدك الى ان تصل الى شيء جديد ٠٠ ثم ان هذه القصص تفتح لنا نافذة جديدة ، ولكنها محيرة ٠٠ قد لا يلوح منها إلا ركن ضئيل من عالم « جيل فارن »و « ويلز » و « آلدس هكسلى » وغيرهم من الكتاب الذين ملؤوا رواياتهم بتنبوءات المستقبل فى إطار علمى ٠٠ ولكن لم يتح لنا ان نقرأ افضل مما فعله سلامة موسى فى هذا المجال ، الذى تفتقر فيه القصة العربية ٠٠ ذلك النوع الذى يستخدم العلم ويتطلع الى المستقبل ، كما نجد فى آخر هذه المجموعة « هجرتنا الى القمر » وكما فعل فى قصته « طوبى مصرية » (2) تلك التى نسجها بخيال علمى بحت ٠٠ وهى ـ حسب ما نعلم ـ المحاولة الاولى من نوعها فى الادب العربى الحديث ٠٠ ولئن كان أدبنا العربى المعاصر قد عرف القصة القصيرة العلمية ، والرواية العلمية ، كمحاولات متواضعة جدا ٠ ونسجل انه مع ظهور فجر سنة 1973 ، برزت الى الاسواق العربية رواية علمية ناجحة (3) ٠

وعلى كل حال فاننا فى هذه اللفتة الى قصص سلامة موسى لسنا بصدد معالجة نوعية الشكل لقصصه أو تعبير مضمونه ٠٠ فهذا يحتاج ـ ليس الى لفتة فقط بل ـ الى وقفة تأمل عميقة فى كل آثاره القصصية ، ولكن محاولتنا هذه هى لفت النظر الى المناضل الذى لم يترك سلاحا مؤثرا إلا واستعمله ، فى

---

(1) انظر كتاب محمود الشرقاوى « سلامة موسى المفكر الانسان » ٠

(2) توجد فى الفصل الاخير من كتابه « احلام الفلاسفة » ٠

(3) « قاهر الزمن » لنهاد شريف ٠ دار الهلال ٠ يقول يوسف الشارونى عن الرواية وعن صاحبها : « هى حلم علمى خرج به صاحبه من نطاق ذاته الى نطاق وطنه بل الى العالم كله ، وتلك ميزة تسجل للمؤلف الشاب ، أن يستطيع الافلات من دفع التيار السائد الطاغى ليكتشف بنفسه ولنفسه أرضا نادرا ما ارتادها غيره فى أدبنا المحلى » ٠

سبيل ما يطمح اليه هو ٠٠ وما يتمناه ويرجوه للاجيال العربية ، بما فى ذلك سلاح الأدب القصصى ٠٠

وان هذا العبور السريع لا يمنعنا من أن نحدد غايات سلامة موسى فى كتاباته القصصية ٠ على أنها تنحصر فى مسألتين اثنتين أولاهما : (همـوم الطبقة المفقودة الحظ فى المجتمع) ٠ وثانيهما : (الطموح العلمى لفائدة مستقبل الانسان العربى) ٠

وفى الختام أود أن أضيف الى كل ما سبق ، أن سلامة موسى هو من الرواد الأوائل اللذين أدركوا حقيقة الدور الخطير الذى يمكن ان تلعبه القصة فى حياة الفرد والمجتمع من توعية حقيقية ، إيمانا منه بأن القصة (فن ماكر) تستطيع أن تحقق ما يعجز عليه غيرها من الفنون الاخرى ٠

ح٠ ا٠ ج٠

ـ من محتويات عددنا القادم الخاص بالادب الفلسطينى :

- **الراوية (قصة) .... خالد الخطيب**
- **الاولاد يخلعون أنياب الاسد (مسرحية) ٠٠ أمين السلطى**
- **فى لعبة الشعر والموت (قصة) ٠٠ عبد القادر الدردورى**
- **مرثية الكلمات العواقر (شعر) .... جواد صيداوى**
- **ما لم يقله الشهيد (شعر) ٠٠ خالد محيى الدين البرادعى**
- **ملصقات على بقايا الشارع المنهار (شعر) ٠٠ على الخليل**
- **مواصلة الخروج على قرار التصفية (شعر) . خالد أبو خالد**
- **القهر والحصاد (شعر) .... عبد الرحمان غنيم**
- **اغتيال أبى الطيب المتنبى .... رشاد أبو شاور**

مطالعات

رواد الاصلاح

تأليف : رشيد الذوادي

عرض وتعقيب : رضوان ابراهيم

رشيد الذوادي من الكتاب التونسيين المعنيين بفن السير والتراجم ، يتابع كل نبتة تنجم في حقل الفكر التونسي ، فيمهد لها المكانة اللائقة بها في سجل الأدب والثقافة والفكر ، الذي أصبح حافلا بالأعلام .

وقد استقبلت المكتبة العربية بحفاوة تجارب الذوادي في مجال التراجم من أمثال كتاب « حسن النوري » ، وكتاب « أبطال وشهداء » ، وكتاب « أعلام من بنزرت » ، وكتاب «أدباء تونسيون » .

أما كتابه الذي نعرضه اليوم وهو كتاب « رواد الاصلاح » فيتميز بأنه رحلة حول خمسة من الرواد ، عاشوا في فترات متتابعة امتدت من عام 1820 الى عام 1940 ، وتمثلت رسالتهم في المحاولة الجادة لاصلاح المجتمع العربي الاسلامي في فترة من أشد فترات حياته قسوة وظلمة ، فاستطاعوا بعبقريتهم وثوريتهم ونضالهم واصرارهم أن يمزقوا حجب الظلام والجهالة ، وأن يصيحوا في وجه الجبروت الاستعماري ، وأن يفجروا في نفوس مجتمعاتهم طاقات الثورة ، وأن يبشروا بعالم أفضل ، فكانوا طلائع الحرية ، وأضاءوا طريق الأمة نحو فجر التحرر والاستقلال والتقدم الذي نسلكه اليوم .

وليست شخصيات الذوادي في هذا الكتاب قاصرة على المحيط التونسي كما عودنا في كتبه السابقة ، ولكن دائرة الاصلاح اتسعت أمامه ، فجال معها في أنحاء العالم العربي والاسلامي أينما وجد الاصلاح ورجاله الذين ندين لهم

اليوم بما أحرزناه من يقظة ، وما سنحرزه غدا من تقدم فى مجالات الفكر والحرية والثقافة والسياسة .

وحين تذكر كلمة الاصلاح فى تونس تتداعى الى الذاكرة شخصية خير الدين التونسى ، محاطة بهالة من التقدير والاجلال ، سواء من المثقفين أو السياسيين أو رجل الشارع .

وخير الدين فى وعى الدائرة التونسية المحدودة ليس عبقرية عربية تونسية فحسب ، ولكنه أسطورة سياسية وفكرية على النطاق الأممى .

فهو ظاهرة شاذة بمقياس عصره وبيئته ، وهو شخصية فذة على المستوى العالمى ، حيث عاش ومارس حياته بين العشرينات والتسعينات من القرن التاسع عشر فى بلد متخلف مهدد بالاستعمار بين يوم وآخر .

وحبكا للأسطورة لا بد أن يكون خير الدين من سبى القوقاز ، وأن يباع فى سوق استامبول ، ليستقبله قصر نقيب الأشراف ، فيتربى مع ابنه الوحيد ، وحينما تحزن الأسرة لفقد وحيدها تتخلص من شبح الذكرى باعادة بيع رفيق حياته خير الدين ، وبالتداول يصل الى ساحة باى تونس ، الذى يرى فيه شخصية غير عادية ، فيخصص له المعلمين والمربين ، وتسعفه همته ، فلا يقتصر على تلقى المبادىء ، بل يعكف على فنون الحرب والسياسة ، ويلازم العلماء ، ويتقن الفرنسية الى جانب العربية والتركية .

وتونس يومئذ بلد متخلف ، لم يبق له من الحضارة سوى هيكل متداع ، ولا من الدين الا بعض المظاهر والقشور التى انزوت فى الكتاتيب وأركان التكايا والزوايا ، بينما التعليم المدنى خاضع للجاليات الأجنبية ، وما يتبع ذلك من فساد الحكم ، وانهيار الاقتصاد .

لقد أزعج ذلك الباى أحمد باشا مولى خير الدين ، فحاول ادخال بعض التنظيمات على هياكل الادارة ، وصادف ذلك اهتمام الدولة العلية على عهد محمود الثانى باقتباس بعض النظم الأوروبية ، وتطبيقها فى مختلف ولاياتها ، ومن بينها تونس .

وبمعونة خير الدين استطاع الباى أن يشجع الثقافة ، وينظم الجيش والادارة ، ويخفف الضرائب ، ويلغى الرق .

وفى هذه الأثناء ألحق خير الدين بالحاشية ، وصحب الباى فى زيارته لملك فرنسا ، ثم عين أميرا للواء ، ووكل اليه بعض المهام العسكرية والاقتصادية الخطيرة ، وكلف باصلاح أوجه الفساد الادارى والانحرافات السياسية فى البـلاد •

وقد اقتضت بعض هذه المهام أن يقيم فى فرنسا ثلاث سنوات متصلـة ، حيث واتته الفرصة لتوسيع آفاق ثقافته ، والتعرف على أعلام أوروبا وبلدانها وأسباب تقدمها •

وتداول كبريات الوظائف ، فعين وزيرا للحربية ، ثم رئيسا للوزراء ، كما تداولته العقبات التى اعترضت طريقه الاصلاحى ، فتـرك الحكـم ، وعكف على تدوين تجاربه فى كتاب حلل فيه تطور المجتمعات المتقدمة ، وسماه « أقـوم المسالك فى معرفة أحوال الممالك » •

وظل خير الدين بعيدا عن الحكم سبع سنوات استشرى فيها الفساد ووقع فيها الانهيار الاقتصادى ، فاستدانت الحكومة بفوائد ربوية باهظة اضطرتها لفرض ضرائب عالية ، مما فجر الثورة الشعبيـة المشهـورة بقيـادة علـى ابن غـذاهم •

وخوفا على تونس من تفاقم الأمور حولها ، وانقضاض الاستعمار الفرنسى الذى داهم جارتها الجزائر ــ كلف الباى خير الدين برئاسة اللجنة المالية التى شكلت لتسوية ديون تونس ، فأنقذها من الانهيار الاقتصادى والاستعمـار السياسى ، وقام بتوثيق العلاقات بينها وبين الدولة العلية ، فعينه البـاى وزيرا أكبر الى جانب رئاسة اللجنة المالية •

واستيقظت سعايات الناقمين على خير الدين ، وعلى الاتجاه الاصلاحى عامة، فنحى عن الحكم ، وصودرت حريته ، مما جعله يفكر فى الهجـرة ، وحينئـذ استدعاه السلطان عبد الحميد الذى كان قد اطلع على آرائـه الاصـلاحية فى كتابه « أقـوم المسـالك » ، فعينه رئيسا للجنة الاقتصادية ، ثم عينه صدرا أعظم للدولة العلية ، لكن قلبه ظل معلقا بتونس ، متابعا لأحداثها ، وقد حزن حزنا شديدا عندما علم باحتلالها على أيدى الفرنسيين ، وظل حزينا عليها حتى فـارق الحيـاة •

ولقد كان خير الدين طاقة فكرية ووطنية واصلاحية جعلته من أعلام القرن التاسع عشر ، ووضعته على رأس المصلحين العرب والمسلمين فى فترة كانت

تموج بالتقلبات العالمية الخطيرة ، فكان من حسناته أن أصدر أول دستور فى البلاد الاسلامية كلها ، هو عهد الأمان ٠

وكان أعظم تراث فكرى وسياسى واجتماعى خلفه خير الدين ، بل خلفته هذه الفترة هو كتاب « أقوم المسالك » الذى حلل فيه أحداث العالم الاسلامى على ضوء الحركة التقدمية التى شملت الدول الاوروبية ، وجعلها تسبق الشرق بمراحل بعيدة ٠

وترجع أهمية هذا الكتاب الى أنه صدر عن مصلح عربى مسلم ، وحوى أفكارا سياسية تقدمية فى فترة مبكرة من حياة الشرق الفكرية المتخلفة ٠

وتذكرنا سيرة خير الدين بحياة ابن خلدون فى عناصر كثيرة مشتركة ، من بينها الآراء الثورية الجريئة ، والدعوة للانتقاض على التقاليد البالية ، وعلى أسباب التخلف التى تحيط بالعالم الاسلامى ، كما يتشابهان فى انتاجهما الفكرى التقدمى بالنسبة لعصريهما ، فقد لفت كتاب خير الدين أنظار العالم كله ، وترجم فور صدوره الى العديد من اللغات الاوروبية ، وما يزال يجد صداه حتى الآن ، ويعتبر من مفاخر الفكر التونسى ، كما يعد مرجعا مبكرا للدراسات السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، وحوله تدار الرسائل والبحوث الجامعية ٠

واذا كان الدارسون التونسيون يعلقون الاهمية الكبيرة على مقدمة هذا الكتاب وحدها لما حوت من أفكار وآراء ذاتية ، واذا كانوا يرون أن الكتاب نفسه لا يعدو أن يكون معلومات جغرافية وتاريخية واجتماعية عن البلاد الاوروبية التى زارها فان بعض الباحثين فى المشرق قد كشفوا فى صلب الكتاب عن نظريات سياسية عربية أصيلة فى الادارة السياسية لم تتوصل اليها أوروبا الا فى أوائل القرن العشرين ٠

فى هذا الكتاب ينادى خير الدين بالقضاء على الاستبداد والحكم المطلق ، ومقاومة الدكتاتورية ، كما يرى أن المبادىء الاسلامية هى أصلح الانظمة للمجتمع الحر العادل ، كذلك يرى أن يجمع العالم الاسلامى بين روح الاسلام وما فى المدنية الحديثة من عوامل التقدم ، كما كان يحبذ النظام الرأسمالى ، ويدعو الى التعليم المهنى ٠

وقد ترك خير الدين الى جانب ذلك بذرة الحرية والاصلاح والتقدم التى ما تزال تونس تحمل شعلتها ، وما يزال تلاميذه يسيرون على دربه فى الحرية

والاستقلال والتقدم ، ولا ينكر أبناء تونس أن آراء خير الدين وما فيها من وطنية ، وما استلهموه من مبادئها الاصلاحية قد عصمتهم من الغرق فى دوامة التجهيل والتغريب ، ومنحتهم حصانة المقاومة ضد الاستعمار الرهيب الذى انتصروا عليه ·

أما الشخصية التونسية الثانية فى مجال الاصلاح فهى شخصية محمد بيرم الخامس ، الذى عاش فترة ما بين الأربعينات والتسعينات من القرن الماضى ، ويعد من أحرار العالم الاسلامى ، فلقد نضجت اهتماماته بالسياسة واصلاح شؤون الحكم فى وقت مبكر ، وتولى مشيخة بعض المدارس الكبرى وهو ما يزال فى شرخ الشباب ، كما تولى التدريس فى جامعة الزيتونة ، فبث فى تلاميذه روح التمرد والنقمة على الأوضاع السائدة فى العالم الاسلامى ، ووجه المثقفين الى الاصلاح ، وقد رحل فى أنحاء الشرق والغرب ، واستقر بمصر ، حيث أصدر جريدة « الاعلام » ، وتولى القضاء وبعض المهام السياسية ، وساهم فى النهضة الفكرية ، وألف فى الفلسفة والعلوم الشرعية والسياسية ، وأبرز مؤلفاته كتاب « صفوة الاعتبار » ، وهو موسوعة فى السياسة والتاريخ والرحلات ووصف البلدان ومجتمعاتها وسياستها ·

وقد مارس الاصلاح من جذوره ، اذ كان يرى أن اصلاح التعليم هو البداية ، كما نادى باصلاح الاخلاق ، وتطبيق النظم النيابية ·

وهو من أنصار خير الدين ومؤازرى دعوته ، وقد استعان به خير الدين فى تنظيم التعليم والاوقاف ، وتولى بعد خير الدين اصلاح القضاء ، وتنظيم المستشفيات وحاول اصلاح نظم الحكم ·

والتقى فى الشرق بأقطاب الفكر والسياسة ، أمثال الشريف حسين ، ومدحت باشا ، وسعد زغلول ، وأديب اسحق ، وسليم نقاش ·

وخلاصة آرائه تتركز فى الرجوع الى مبادىء القرآن ، وتطهير الدين من البدع ، وفتح باب الاجتهاد ، والانتفاع بثمرات العلم الحديث ، وتجديد أساليب التعليم ·

اما عبد الحميد بن باديس الذى عاش بين عام 1889 وعام 1940 فلم تعرف الجزائر خطيبا يماثله فى البلاغة وقوة التأثير فى الجماهير ·

كان من الرواد الذين فجروا الثورات ، ودفعوا شعوبهم الى ميادين التقدم ،

وقد استمسك بعروبة الجزائر في مواجهة الاستعمار الاستيطاني الذي كاد يجتاحها الى الأبد ، وبذلك أصبح أبا الجزائر ومعلمها .

وولد ابن باديس في قسنطينة بالجزائر ، والتحق بالزيتونة في تونس ، وفيها تخرج ، وقام بالتدريس لطلابها .

وممن تأثر بهم البشير صفر ، والثعالبي في تونس ، والطاهر الجزائري في دمشق ، ومحمد عبده ، وجمال الدين الافغاني ، وعبد الرحمن الكواكبي ، ومحمد اقبال ، وقاسم أمين على اختلاف اتجاهاتهم ومذاهبهم في الاصلاح .

وقد اصطنع في سبيل تحقيق أهدافه الاصلاحية مختلف الوسائل ، كفنون الادب ، والصحافة ، والخطابة ، ولكي تظل الجزائر عربية مسلمة كان لا بد من بعث الحركة الدينية التجديدية ، ونشر اللغة العربية في جميع مجالات الحياة.

وأما جمال الدين الأفغاني ، فالى جانب ما هو معروف عنه من معلومات شائعة ركز على دوره الرائد في علاج أزمات العالم الاسلامي ، ودعوته الى التجمع تحت ظلال الجامعة الاسلامية ، وكانت سياحاته في جميع أنحاء القارات ذات أثر فعال في النهوض بالعالم الاسلامي ، غير أن دوره في مصر ، والتقاءه بمحمد عبده ، وتأليف جمعية العروة الوثقى ، وتعاونهما على ايقاظ العالم الاسلامي ، وتنقية الاسلام من الخرافات ، واعلان الثورة على الاستعمار والاقطاع ـ كان من أكبر الأدوار التي لعبها جمال الدين الأفغاني في حياته كلها .

والحديث عن جمال الدين لا بد أن يستدعي الحديث عن تلميذه وحواريه محمد عبده ، لأنهما لعبا دورا مشتركا في حياة الأمة العربية والعالم الاسلامي ، بحيث يكمل كل منهما الآخر .

غير أن المؤلف أبرز شجاعة محمد عبده ، وجرأته في الجهر بآرائه، واقدامه على التجديد ، وحملته على الجمود والرجعية ، كما تحدث عن أدواره الدينية والسياسية ، وعن مواقفه من اصلاح التعليم ، وما لقيه من تكريم الهيئات في مختلف أنحاء العالم ، وما صادفه من عقبات في سبيل تحرير الفكر ، وتطهير الدين ، وتحرير الأساليب الادبية من بقايا عصور الانحطاط ، وتقويم أسلوب الصحافة ، وتصحيح أفكار المستشرقين عن الدين الاسلامي ، ورد تهجماتهم عليه .

غير أن المؤلف وقع فى التباس صغير عند حديثه عن الحركة التجديدية التى قام بها محمد عبده ، فقد اشتبه عليه اسم الكاتب الكبير عباس محمود العقاد ، مؤلف كتاب « محمد عبده » فى سلسلة أعلام العرب ، وعباس محمود ، مترجم كتاب « الاسلام والتجديد فى مصر » ، وهما شخصان مختلفان .

وهكذا يقدم لنا الباحث التونسى رشيد الذوادى فى هذا الكتاب نماذج جديدة من أعلام الفكر والاصلاح ، تجمعهم نزعة الاصلاح ، وإرادة تغيير المجتمع ، فى فترة حرجة من حياة الأمة العربية والعالم الاسلامى .

تجمعهم كذلك المعاصرة ، كما تجمعهم العروبة والاسلام مهما اختلفت بهم الديار ، ويثقل ضميرهم الواجب نحو الوطن ، والالتزام بحماية الدين .

والقدر المشترك بينهم يتمثل فى حرية الرأى ، والشجاعة فى الجهر بالحق ، والحرص على لغتهم والتقاليد الصالحة للمجتمع الاسلامى الواعى .

ولقد بذل المؤلف الكثير من الجهد لكى يجمع أطراف المعلومات عن هؤلاء الأعلام ، سواء فى جمع المراجع الكثيرة والمبعثرة فى أنحاء العالم أو فى تنقية هذه المعلومات مما أدخل عليها لتشويه سيرة هؤلاء الأعلام ، سواء من الأدعياء أو الحاقدين ، وبهذا استطاع أن يقدم الينا هؤلاء الاعلام بالصورة اللائقة بهم ، وبما بذلوه من جهود مضنية فى سبيل مجتمعاتهم ، وبالصورة التى تليق بالمؤلف كباحث ألزم نفسه بأن ينصف هؤلاء المجاهدين من قالة السوء ، ومن الحملات المغرضة التى وجهت اليهم فى حياتهم كثيرا ، وبعد رحيلهم أكثر وأكثر .

ولم يكن ذلك بالامر الهين ، فان كلمة الحق تثقل ضمائر الذين يتحرون فيها وجه الصواب بالجمع والتدقيق والموازنة والتحقيق ، حتى تبدو كلمة الحق فى المكانة الجديرة بها .

ويبدو من عديد المراجع وأشتات المصادر التى استنطقها المؤلف ، ومن الموازنات والتدقيق وتقليب وجوه الرأى ، والتحقيقات والتصويبات التى تحراها الذوادى أنه يحترم التاريخ ، ويحترم قلمه ، وقبل هذا وذاك يحترم قارئه ، وفى سبيل ذلك يهون كل جهد يبذله الباحث لكى يؤدى واجب الحقيقة ، ولكى يكون جديرا باحترام قرائه ، وهو الأمر الذى نغبط من أجله الذوادى ، ونباركه عليه .

د. إ.

اضواء الفكر

• **وفد عن اتحاد الكتاب التونسيين يزور سوريا :**

توطيدا لعلاقات الاخوة والتعاون تم امضاء اتفاقيــة بهذا المعنى بين اتحــاد الكتاب التونسيين واتحاد الكتاب العرب في سوريا أثناء انعقاد مؤتمر الأدباء الثامن بدمشق ٠

ثم ان برنامجا مفصلا للعمل لفترة سنتين تم وضعه وتوقيعه أثناء زيارة قام بها الى تونس كل من السيدين رئيس اتحاد الكتاب السوريين ومساعده ٠

وفي نطاق هذا التبادل والتعاون أوفد اتحاد الكتاب التونسيين عنه في الشهر الماضي السيدين أبو زيان السعدي وعبد الواحد براهم لتلبية الدعوة الصادرة عن اتحاد الكتاب العرب بدمشق ٠

لقي عضوا وفد اتحاد الكتاب التونسيين ترحيبا كريما من الاشقاء السوريين الذين أعدوا لهما برنامجا واسعا وثريا مكنهما من التعرف على أهم المؤسسات الثقافية ومعايشة الحركة الفكرية والادبية في الشقيقة سوريا ، كما هيأوا لهما ندوات ثقافية ثلاثا في كل من دمشق وحمص وحلب مكنتهما من الاتصال بعدد من المثقفين قصد التعريف بنشاط الحركة الثقافية في تونس وبأهم رجالاتها ٠

امتازت زيارة الوفد أيضا باللقاء الذي كان له مع اتحاد الكتاب والصحفيين الفلسطينيين ٠ كما حفلت بلقاءات عديدة أخرى سواء مع بعض الشخصيات الرسمية كالاستاذ جورج صدقني رئيس اتحاد الكتاب سابقا ووزير الاعــلام حاليا ، والدكتور شاكر الفحام وزير التربية ، أو مع رجالات الادب والفكــر كالاستاذ خليل هنداوي ، والدكتــور عمر الدقاق ، والاستاذ جــورج سالم ، والدكتور احسان عباس ، والدكتور حسام الدين الخطيب ، والاستاذ شوقــي بغدادي ، والاستاذ محيي الدين صبحي ، والعميد ابراهيم الشاعر ، والاستاذ عبد الكريم الناعم ٠٠٠ وغير هؤلاء ممن تحفل بهم الحياة العلمية والفكرية في البلد السوري الشقيق ٠

وفيما يلى مقتطفات من كلمة الترحيب التى ألقاها الشاعر الكبير خليل الهنداوى فى الندوة التى عقدها فرع اتحاد الكتاب العرب بحلب مع وفد اتحاد الكتاب التونسيين :

« أهلا بأديبى تونس الخضراء ، أبو زيان السعدى وعبد الواحد براهم ٠٠ فى هذه الايام الخضراء ٠ حين كانت الاقطار العربية موزعة الى أجزاء كل جزء له همومه ومشاكله ، فى تلك الايام الصيبة عرفناكم ٠٠ سمعناكم بأصوات أدبائكم ، بأناشيد شعرائكم ٠

لقد عرفناكم عن طريق هذا الادب الذى جمعنا فى الماضى ويجمعنا فى الحاضر والآتى ، هذا الادب الذى قال فيه بحق أبو تمام :

ان يكن مطرف الاخاء فاننا نغدو ونسرى فى اخاء تالد
أو يختلف ماء الوصال فماؤنا عذب تحدر من غمام واحد
أو يفترق نسب ، يؤلف بيننا أدب أقمناه مقام الوالد

واليوم تشاء المقادير أن تبعثكما الينا رسولين كريمين للادب التونسى ، والادب خير رابطا بين الشعوب ، وخير رسولا ٠

ألا بورك فى الادب ، هذا الادب الذى لم ينس يوما رسالته القدسية ، فى جمع الاجزاء للاجزاء ، والاعضاء للاعضاء ، والاصدقاء للاصدقاء ، يوحد الاصوات ، ويذكر الاحياء برسالة الاموات ٠ فاذا قلب تونس العربية ، يخفق فى قلب سورية العربية ٠

فاهلا بكما وسهلا فى مدينة الشهباء ، فى بيتكما الصغير الذى ارى حدوده تترامى على حدود مرابعكم الخضراء :

حبذا العيش من قومى جميع لم تفرق ما بيننا الاجزاء
أيها المشتهى فناء بلادى بيد الله عمرها والبقاء

ان الذين اجتمعوا الآن يسرهم أن يسمعوا منكم شيئا عن مسيرة الادب عندكم باتجاهاته وميوله ، ولا سيما فى الفترة الاخيرة ، لان ما نعرفه عن الادب التونسى ضئيل جدا ، والمعرفة لا يمتنها شىء كالتعارف ولا يرسخها شىء كالتآلف ٠

• **ديوان ابن قزمان الاندلسى بالاسبانية :**

عن مجلة المصور اقتطفنا ما يلى من مقال كتبه رجاء النقاش بعنوان « هكذا

يهتمون بالتراث العربى » ، وفيه دعوة حارة الى بذل المزيد من الجهد للمحافظة على هذا التراث :

« هذه قضية تستحق منا أن نناقشها باهتمام وجدية • فالتراث العربى القديم يلقى من الباحثين الغربيين عناية لا يلقاها فى وطننا العربى نفسه • والمسؤولية فى هذا الموقف الغريب تقع ولا شك على عاتق مؤسساتنا الثقافية مثل الجامعات ودور النشر الرسمية والجامعة العربية • لقد كان من الضرورى أن تتجمع جهود وامكانيات واسعة وجادة فى سبيل نشر التراث العربى وجمعه من المكتبات العالمية حيث توجد آلاف المخطوطات المبعثرة فى مكتبات تركيا وأروبا وأمريكا وروسيا • وكان من الضرورى أن تكون هناك جهود حقيقية لاحياء ذكرى كبار رجال الفكر العربى • واحياء ذكراهم لا يعنى الاحتفال الشكلى بيوم المولد أو يوم الوفاة ، وانما يكون هذا الاحياء بالسعى على أن تظهر أعمال هؤلاء المفكرين وأن تدرس كتبهم دراسة جادة وحقيقية •

وأود أن أتحدث عن نموذج من اهتمام الغربيين بالتراث العربى ، حيث يكشف هذا النموذج عن مدى التخلف فى موقفنا من هذا التراث ، ففى زيارة لاحد أساتذتى بالجامعة ، أطلعنى هذا الاستاذ الجليل على كتاب من ثلاثة مجلدات كبيرة صدر فى اسبانيا وهذا الكتاب هو النص العربى لديوان الشاعر الاندلسى الشعبى القديم « ابن قزمان » وقد قام بنشره المستشرق الاسبانى « أميليو ڤارسيا قومس » ، ولم يكتف المستشرق الكبير بنشر النص العربى « بالحروف اللاتينية » وانما نشر فى مقابل كل صفحة من النص العربى ترجمة دقيقة لها بالاسبانية ، ولم يترجم النص العربى الى النثر وانما ترجمه الى الشعر الاسبانى حتى يحافظ على ما فيه من جمال وموسيقى شعرية • وهكذا استطاع المستشرق الاسبانى الكبير أن يقدم هذا العمل الضخم من أعمال التراث العربى الى العالم كله ، وذلك فى ثلاثة مجلدات تزيد على ألف وخمسمائة صفحة ، فى الوقت الذى لا توجد فيه طبعة من هذا الديوان بالحروف العربية فى أى مكتبة من مكتباتنا الكبرى ، حيث أن المخطوط الوحيد من هذا الديوان يوجد فى المتحف الاسيوى فى لينينجراد ، ولست أدرى لماذا لم نحصل نحن على هذا المخطوط وننشره كاملا بحيث يكون نصه العربى فى أيدى الباحثين من أبناء بلادنا ؟

أعود بعد ذلك الى المستشرق الكبير « ڤومس » الذى قام بنشر ديوان ابن قزمان وترجمته الى الاسبانية فى ثلاثة مجلدات كبيرة • ان « ڤومس » هو عميد المستشرقين الاسبان ، وهو الآن فى السبعين من عمره • وهو تلميذ لمستشرق اسبانى شهير هو « آسين بلاثيوس » الذى كتب بحثا شهيرا عن « الاسلام

والكوميديا الالهية لدانتي » ، حيث أثبت أن دانتي قد تأثر بالتراث الاسلامي وخاصة بقصة « الاسراء والمعراج » و « رسالة الغفران للمعري » • فثومس اذن هو ابن من أبناء المدرسة الاستشراقية الاسبانية التي تؤمن بدور العرب في الحضارة الاوروبية وبتأثير الحضارة العربية الواسع عن الحضارة الغربية •

وثومس هو الآن عضو بارز في الاكاديمية التاريخية والاكادمية اللغوية في اسبانيا وكان سفيرا لاسبانيا في العراق ولبنان وتركيا • وكان أستاذا للادب العربي في جامعة مدريد وهو مشرف على مجلة الاستشراق الاندلسي • وهذا المستشرق الكبير يحتل مكانة بارزة في الصحافة الاسبانية ، لانه كان وما يزال يكتب في الصحف كتابات متنوعة في الادب والفكر والسياسة الى جانب ما يقدمه من أبحاث في مجال الدراسات العربية ، وكان « ثومس » على صلة بالدكتور طه حسين وقد حضر عليه محاضرات في الادب العربي ، وترجم له كتاب « الايام » الى الاسبانية كما ترجم « ثومس » الى الاسبانية أيضا رواية « عودة الروح » لتوفيق الحكيم ، وترجم كتاب « طوق الحمامة » الشهير لابن حزم الاندلسي الى اللغة الاسبانية ، وكتاب « طوق الحمامة » هو أول كتاب عن « فن الهوى » ظهر في العصور الوسطى ربما في العالم كله ، وقد كتبه ذلك المفكر العربي الاندلسي الكبير « ابن حزم » بلغة جذابة رائعة وفكر عميق ، وقام فيه بتحليل عاطفة الحب تحليلا ذكيا جميلا يمتزج فيه الفن والفكر والشعور الانساني النبيل •

هذا هو ثومس الذي نشر أشعار ابن قزمان وترجمها الى الاسبانية • فمن هو ابن قزمان نفسه ؟• يقول عنه أستاذنا الدكتور عبد العزيز الاهواني ـ أحد علمائنا البارزين المختصين في الادب الاندلسي وذلك في كتابه عن الزجل الاندلسي :

« كان اكتشاف ديوان ابن قزمان بالنسبة للغربيين حدثا جديدا في تاريخ الشعر الاندلسي ، بل والاوروبي كله فعكف عليه العلماء سواء في ذلك أصحاب الدراسات العربية أو الدراسات الرومانية في القرون الوسطى ، يقتبسون منه الشواهد ، ويقارنون بين نظام القوافي عنده وعند التروبادور ، أو الشعراء الجوالين الاوروبيين ، ويحاولون تفسير بعض ألفاظ أعجمية استخدمها الزجال ، الى غير ذلك من أبحاث عد منها الاستاذ « لفي بروفنسال » في مقالة له كتبها سنة 1944 تسعة وعشرين بحثا أو اشارة أو اقتباسا ، ويمكن أن يضاف الى هذا العدد مقالات جديدة صدرت بعد التاريخ المذكور » ويقول المؤرخون القدماء عن ابن قزمان « انه المنفرد بالابداع في طريقة الازجال وقد توفى سنة 554 هـ » •

◆ **فى ذكرى الاديب محمد البشروش :**

أقامت أواخر الشهر الماضى اللجنة الثقافية بدار شعبان الفهرى ملتقى ثانيا لالاحتفال بذكرى الاديب المرحوم محمد البشروش صاحب مجلة المباحث وأحد شبان تونس الذين ملأوا الحياة الادبية فى الثلاثينات ٠

من فقرات البرنامج محاضرة للدكتور محمد سويسى عن « مجلـة المباحث والعلوم » ، وندوة موضوعها : « النقد الادبى ومحمد البشروش » شارك فيها الاساتذة : أبو القاسم محمد كرو ، توفيق بكار ، الطاهر الجديدى ، عبد الحميد سلامة ، المنجى الشملى ، المنصف الشنوفى ٠

◆ **المنشـورات الجـديـدة :**

ـ صدر حديثا للاستاذ رشيد الذوادى كتاب عن « على البلهوان » السياسى والمفكر التونسى المعروف ، وفيه يروى المؤلف قصة هذا الرجل المناضل الذى عاش فترة الكفاح التونسى وأسهم فيه بالفكر والقلم والنضال الصامد المستميت أى إسهـام ٠

ـ كما صدرت عن الشركة التونسية للتوزيع مجموعة شعرية للاستاذ جعفر ماجد عنوانها : « غدا تطلع الشمس » ، وهذا ثانى مؤلفاته الشعرية بعد مجموعة « نجوم على الطريق » ٠

◆ **معرض للكتاب العربى بتونس :**

انتظم فى الايام العشر الاخيرة من الشهر الماضى معرض للكتـاب العربـى بقاعة الشركة التونسية للتوزيع ساهمت فيه أغلب دور النشر بالبلاد العربية٠ واشتمل المعرض على 9000 عنوان لكتب متنوعة الاغراض من منتوجات 80 دارا للنشر والتوزيع ٠

دشن المعرض السيد وزير الاقتصاد الوطنى بمحضر ثلة من السفراء ورجال الثقافة والادارة وبعد أن طاف بمختلف أقسام المعرض عبر عن اعجابه بما احتوى عليه وعن ايمانه بأنه يرى فيه وسيلة فعالة لترويج الكتاب العربى فى تونس ولخلق علاقات تجارية بين دور النشر والتوزيع العربية قد تتطـور الى القيام بانتاج مشترك من شأنه أن يخفف من تكاليف النشر ويعرف كل بلـد عربى بمصنفات البلد الآخـر ٠

وبعد أن ذكر الوزير بأن هناك مثالا طيبـا للانتـاج المشتـرك بين تـونس والجزائر عبر عن الامل فى أن يتحقق انتاج مشترك مماثل فى مجال النشر بين تونس وغيرها من البلاد العربية الاخرى ٠

الفهـرست

العـدد 8 ـ مـاي 1974 ـ السنـة التـاسعة عشـرة

الفكر
مجلة ثقافية

تصـدر بتونس شهريا
مؤسسها ومديرها المسؤول
محمد مـزالى

رئيس التحرير : البشير بن سلامة
سكرتير التحرير: عبدالواحد براهم
لادارة . 13 نهج دار الجلـد ـ تونس
تليفون : 260.237
لحساب الجارى : 33769 ـ تونس
العنوان : صندوق البريد 556 ـ تونس

- تصدر مجلة الفكر عشر مرات فى السنة وتحتجب فى شهرى أوت وسبتمبر
- قيمة الاشتراك السنوى :
اشتراك عادى فى تونس د 2 ديناران
اشتراك الانصـار د 5 دنانير
خارج تونس 500 د، 2 ديناران ونصف
- الاشتراكات يرسل معلومها فى حوالة بريدية باسم المجلة أو يصب فى حسابها الجارى : 337.69 ـ تونس
- الرسائل لا ترد نشرت أم لم تنشر
- المراسلات تكون جميعا باسم :
مدير مجلة « الفكر »
صندون البريد عدد 556 ـ تونس

EL FIKR - Revue mensuelle culturelle 19e Année - N° 8 - Mai 1974

طبع وحفر الشركة التونسية لفنون الرسم 20 نهج المنجى سليم ـ تونس